الكتاب العربي السعودي ١٨

أحمد السباعي

خالتي كدرجان

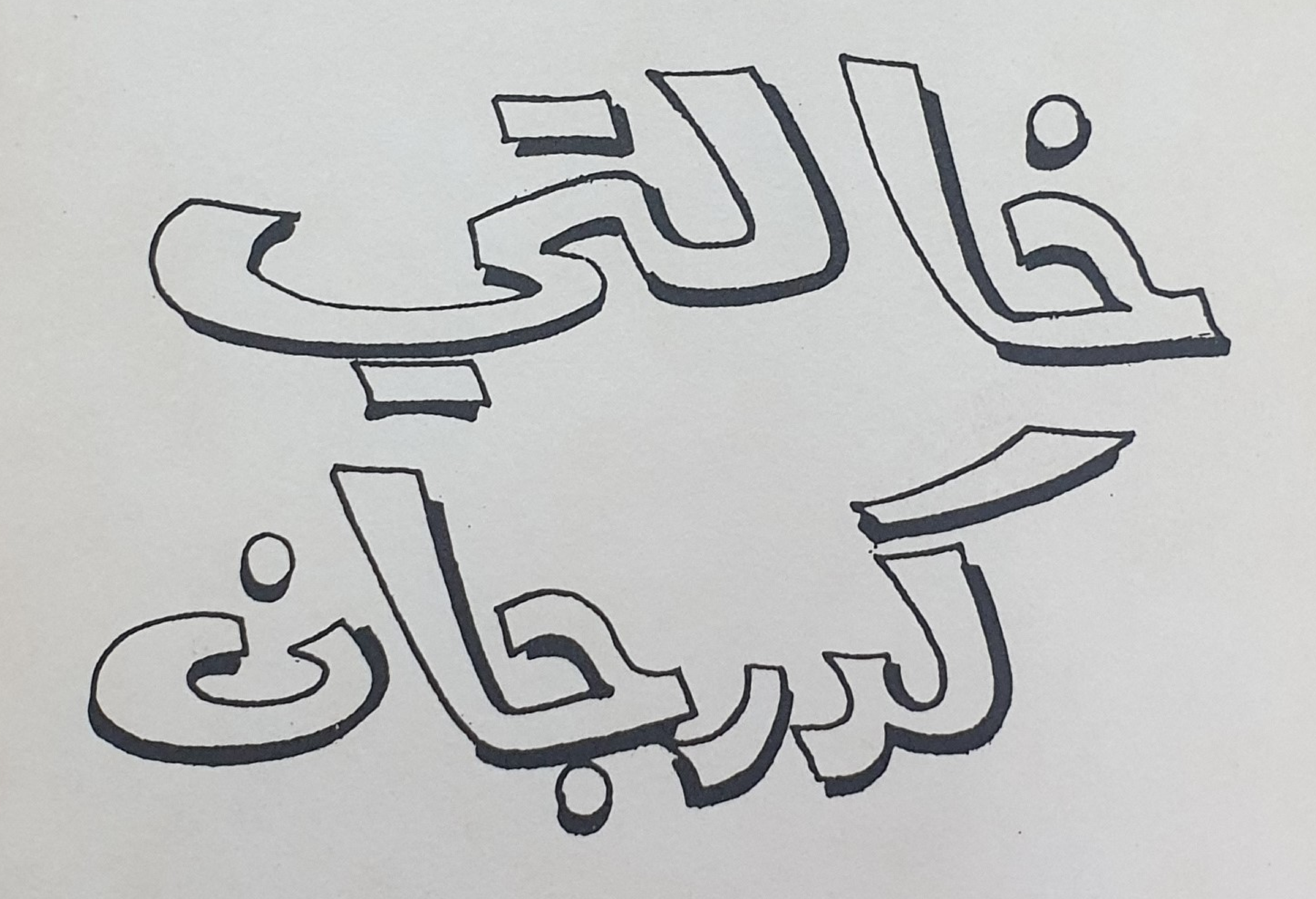
مجموعة قصصية

الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨٠م



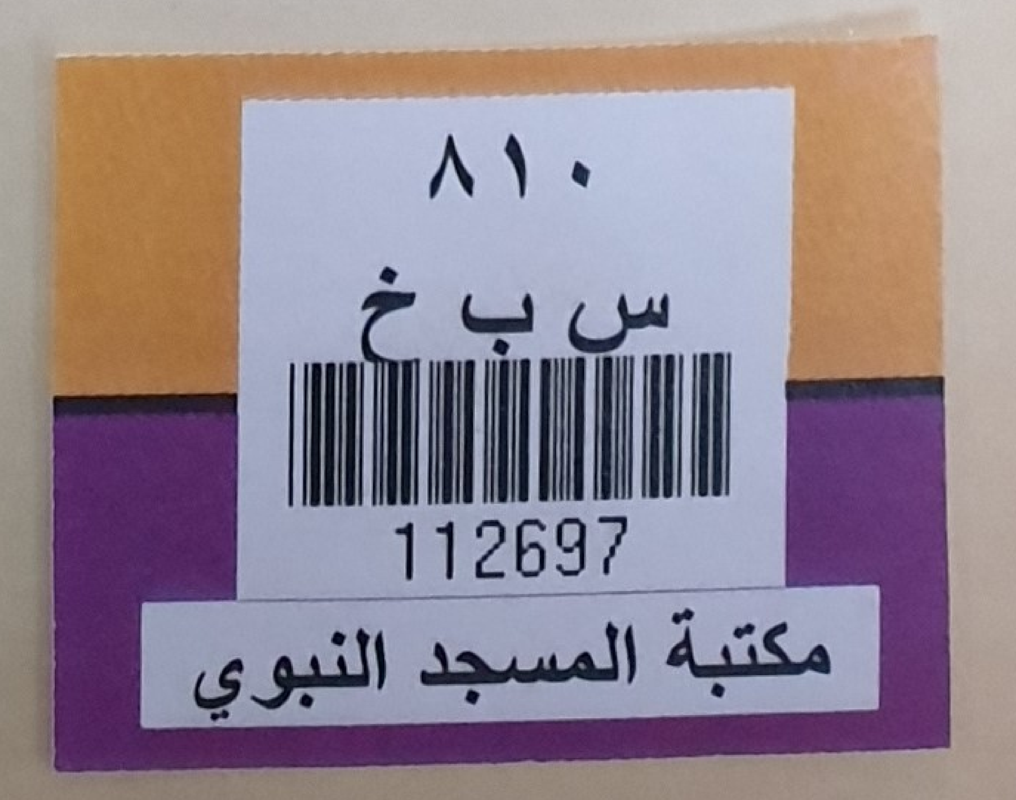
الكتاب العربي السعودي ١٨

أحمد السباعي



مجموعة قصصية

الطبعة الثانية
١٤٠١هـ - ١٩٨٠م



أردتها أقاصيص من صميم الحياة..

أردتها لتكون مرآة يصافحنا فيها

واقعنا من غير رتوش!!

وأنا أؤمل أن نعالج بأمثالها بداواتنا

الخاطئة!!

خالتي كدرجان



خالتي كدرجان

لم يكن اسمها « كدرجان » ولكنه لقب سترثى لها اذا عرفت كيف غلب عليها وأصبحت لا تنادى الا به .

واذا كان سنها قد زاد على الخمسين في نظر بعض جاراتها فان بعضهن يؤكدن أنها أكبر سنا من عم عيدروس بائع الزرنباك المتجول ويؤكد هذا عيدروس نفسه فيقول .. انها كانت تلبس « الفتفتة » !! يوم كنت طفلا اقرأ في كتاب المغربي بجوار بيت أمها فهي في نظره لا تقل عن سن الستين الا بعامين أو ثلاثة .

أما خالتي كدرجان فلا تعنى بكل هذا .. ان حساب السنوات في نظرها دوشة .. ، انها تذكر أنها تعرف سنة السيل الكبير وهي صغيرة وأنها شافت الفيل في مكة وهي صغيرة وأنها حضرت زينة الشريف وهي صغيرة فاذا قيل لها أن بين هذه الحوادث سنوات طويلة صكت وجهها وهي تقول : وصامني .. انا هادي الدوشة تفلق رأسي

انها في نظر نفسها لم تتجاوز الثلاثين الا من سنوات نسيت عددها .. تقول هذا في تصميم قاطع وتزيد فتؤكده لك بهندامها وهي تخطر بين فسحة الديوان الذي

تسكنه وباب الحنية الصغيرة التي جعلت منها مطبخا يقرطع القبقاب في رجليها وهي تتهادى في دلال الفتاة ذات العشرين .

كنا يومذاك صبية نلعب الغميمة بين ملاوي زقاقنا وكنت شخصيا صاحب دل عليها فلا يحلو لي أن اختبىء اذا احتدم اللعب - الا في بيتها وكانت لفرط حنوها اذا رأتني هارعا اليها وانا الهث ظنتني خائفا ممن يطاردني ليضربني فتشير لي بيدها الى الكنبة التي تتصدر الديوان لاختبىء تحتها خلف السجاف فاذا افرخ روعي تسللت على أطراف أصابعي فكانت اذا رأتني تقف دوني لتمنعني الخروج : كم مرة ياواد .. قلت لك لا تخلي البزورة يتلموا عليك .. هادول أشقياء وأنت صغير . وهي لسذاجتها لا تدري أنها طبيعة اللعبة وأن المغموم يجب أن يهتدي الى مخابئ المندسين أو أحدهم ليصبح فيه « الدست » .

كنت ألاحظ أن خالتي كدرجان تعنى كثيرا بمكحلتها ، وهي تحتفظ بجانب المكحلة بعلبة صغيرة أراها كثيرا ما تمد يدها اليها لتتناول منها باصبعها شيئا تدعكه بين يديها ثم تغشى به وجهها فكنت لا أعلق شيئا على ما تفعل .

وكنت كثيرا ما أراها تجلس الى « نصبة » الشاهي وقد فرغت منه فتزيح التبسي والفناجيل وتركز في مكانهم فوق كرسي النصبة مرآة ثم تأخذ بيدها مقصا تمر به على شعر رأسها فتلتقط به شعرة من هنا وأخرى من هناك بيضاء ناصعة وكانت لفرط استخفافها بي كطفل ترجوني أن أساعدها بالنظر في شعرها فإذا لمحت شعرة بيضاء دفعت المقص لالتقاطها فكنت اتحدث الى أمي في بعض الامسيات التي تجتمع فيها مع الجارات فكن يتضاحكن ويتغامزن وربما تأوهت أحداهن في مرارة وقالت انها مسكينة فيمصمصن شفاههن ويبادلنها القول انها مسكينة .

كنت لا أفهم وجها لهذه المسكنة وهذا التوجع الذي يبدينهن تعليقا على

خالتي كدرجان وكان يخيل إلي أنها أكثر رقة وأحلى معاملة من كل جاراتنا بما فيهم أمي وكنت ألاحظ من عنايتها بنفسها وبالناس مالا أجد له مثيلا بين كل الجارات اللاتي اغشى منازلهن .. كان مسكنها على صغرة نظيفاً بشكل يسترعى الانتباه وكانت مساند الكنبة التي تستقبل عليها ضيوفها محلاة بالترتر البراق ومخداتها في وسط الكنبة مطرزة بأشجار يلمع فيها اللازوردي ، والأصفر وفي حواشيها سطور كان يروقني شكلها وان كنت لا أحسن الا قراءة كلمة « آه » بين مقاطعها .

كانت تخدم بيتها وهي في أحلى زينتها تلبس الكرتة من قماش رقيق شفاف وتعقد شعرها بمشط تلمع فيه الفصوص أما الشبشب الذي تتهادى به في خيلاء فكأنه لم يلبس في رجلها الا من يومه .

وكنت الاحظها وهي مغمورة في خدمتها رشيقة أكثر مما تعودت في بيتنا وفي جميع بيوت الجيران حولنا فهي لا تتناول الأشياء الا بأطراف أصابعها فكنت كلما نقلت هذا الى أمي وهي في مجمع من جاراتها لا يروعني الا توجعهن لخالتي كدرجان ومصمصة شفاههن وهن يرددن ؛ مسكينة ياولدي .. قول يالطيف

ولا أذكر في ذلك السن الغرير ـ أنه كان يعنيني من أمر خالتي كدرجان شيء كما يعنيني أن أوفق بين هذه الحياة الناعمة الرشيقة التي كانت تحياها خالتي كدرجان وتتألق في عيني كطفل وبين هذا التوجع الذي الاحظه على أمي وجاراتها كلما مر بينهن ذكراها .

ومرت السنون طويلة مملة توفت اثناءها أمي ولحقت بها أكثر جاراتها ووجدتني أشب عن الطوق فأمنع نفسي عن ديوان خالتي كدرجان مسرح لعبي

أيام الطفولة فلم أعد أسمع عنها شيئا ثم بلغني أنها أصيبت في بعض أيامها بلوثة في عقلها فانتقلت الى بيت بعض قريباتها وانها ما لبثت أن توفت بمرضها

انتهى خبرها الى من عجوز كانت البقية الباقية من جارات أمي امتد بها العمر الى عهد متأخر فاستحلفتها لتخبرني قصة خالتي كدرجان التي كانوا يأسون لها ويتوجعون لحالها رغم الحياة الناعمة التي كانت تحياها ففهمت الكثير الذي كنت اعجز عن تعليله .

شبت خالتي « كدرجان » في كنف والدها هيفاء في جمال مفرط ، وكانت تعيش واياه في هذا البيت الكبير وحدهما لأنها فقدت والدتها وهي في سن الرضاع ثم فقدت اختها وهي يافع ولم يبق من عائلتها غير أبيها الذي كانت تشرف على سائر خدماته وكان بدوره يدللها ويؤمن لها جميع رغباتها .

كان الوالد شيخا تقدمت به السن وكان ثريا من ذوي الأملاك وكان يسكن واياها في هذا القصر وهو من بعض املاكه عندما كانت يافعا يتألق ماء الشباب في محياها الفاتن .

واشتد الطلب على يدها فلم يوافق الوالد على زواجها بدعوى أنها (وحدة وحيلة) وانها (تشيل كبرته) ولكن العالمين ببواطن الأمور كانوا يعرفون انه يخشى أن تنتقل أمواله الى يد أجنبية .

عاشت الفتاة في بيت أبيها منطوية على خدمته ولم يطل ذلك كثيرا فقد وافاه الأجل وهي لما تزل في ميعة صباها فما كادت تنتهي أيام المأتم حتى تقدم ليدها ابن عمها وكان يحتل بعد أبيها مقام الوصى عليها ولكنها أبت قبول يده فهو والد لاتراب في مثل سنها ولما أصر ثبتت عند رفضها في عناد .

وجازاها بعناد مثله اذ رفض باعتباره وصيا عليها كل يد تتقدم لخطبتها .. كان يخترع لكل خطيب عيبا يستند عليه في الرفض حتى استطاع أن يحكم عليها لتعيش عانسا في بيتها .

لقد كان رزقها مكفولا من حصتها في أملاك أبيها ولكنها مع هذا عاشت فارغة تتطلع ككل فتاة الى من يملأ فؤادها وتحلم بالفارس الجميل حتى في أوقات يقظتها .

ولما طال انتظارها عبثا اتسع القصر الذي تسكنه على وحدتها القاسية فانتقلت ببعض أثاثها الى الديوان في أسفل طبقة منه وعرضت الباقي للايجار وعاشت تتجرع غصة وحدتها .

ومضت بها الأيام قبل أن تستيقظ ذات صباح على من يطرق الباب .. كانوا ضيوفا من اندونيسيا قدموا الى الحج من عامهم ذلك .. رجلا وامرأتين يحملون اليها رسالة من بعض أقرباء أبيها فاستقبلتهم في لثام رقيق على عادة نساء مكة في استقبال الحجاج اعتمادا على الثقة فيهم كحجاج وبعد أن تناولوا تحيتهم قهوة أو شايا شعرت ان عين الشاب تسارقها النظر في لهفة فلم تعلق كثيرا على هذا رغم أنها أنست ارتياحاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدة ثوان بين أهدابه .

ولم تمض الا ساعات بعد وداع الضيوف حتى طرق الباب لتستقبل في هذه المرة شيخة الحجاج جاءت لتنقل اليها رغبة ضيوفها في طلب يدها لابنهم الشاب الذي كان يصحبهم في زيارتها قبل ساعات .

وصادف الحديث هوى في نفس فتاتنا فاتسع وتشعبت وجوهه وكان لا بد أن يتداعى الى قصة ابن العم الذي يمثل الوصاية عليها ويحاول بشتى الوسائل ألا يتم لها قران .

ولكن الشيخة كانت شيخة في صرامتها فقد أهابت بها وهي تودعها « شوفي يا بنتي الولد بعد الحج يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفتيهم يأخذ رضا أبوه ويأخذ اللي فيه النصيب علشان المهر واللي منه ويجيكي راجع .. أبوه يبغاه يدرس هنا ويبغاه يكمل دينه ويربط رجله . لا تقولي ولد عمك يرضى ما يرضى .. أنت مو صغيرة .. أخطفي رجلك انت وهو بعدين وعلى بيت القاضي يعقد لكم ما دام انتي راضية ومنت قاصرة ها .. ؟ اتفقنا .

- اللي تشوفيه

- يعني خلاص ؟؟..

- زي ما تقولي !! أصله انتي زي أمي !

ومضى موسم الحج وأقلعت آخر باخرة للاندونيسيين عائدة بهم الى بلادهم فعاشت تحصى شهور العام الجديد في أعصاب متوترة لا تعرف القرار .. انها فرصة العمر .. سوف لا أتركها تضيع من يدي .. لا قيمة للصداق عندي قل أو كثر .. ما أعظم « ستي الشيخة وما أعظم أفكارها .. سوف أصحبه الى بيت القاضي وأقرر موافقتي من أول يوم يطرق فيه بابي .. ما أحلى أن أجد أنسانا يملأ فراغ بيتي بعد طول هذه السنين .. لك الرحمة يا أبي فقد قيدتني في حياتك لأفكارك الخاصة وأسلمتني بعدك لهذه الوحدة المريرة وأبحت للنذل ابن أخيك أن يقيدني لمنفعته الشخصية ويضيف الى السلسلة أقفالا جديدة .. سأحطم هذه السلسلة مهما كانت متانتها .. فتعال .. تعال يا رفيق روحي .. ليتك تسمعني . !!

ولكنه لم يسمعها فيما يبدو وقد أهلت أول باخرة تقل الأندونيسيين الى جدة في العام الجديد ثم تقاطرت بعدها البواخر دون أن تسمع عنه خبرا وانتهى الموسم وتلاه آخر وآخر وفتاتنا تنتظر دون أن تفقد الأمل .

وحاولت أن تعرف رأي « الشيخة » فيما سبب هذا الغياب ولكن أين هي « الشيخة » . ؟ لقد كانت زيارتها بيضة الديك لم تتكرر بعدها وقد فاتها لفرط دهشتها يوم أن زارتها أن تعرف اسمها وعنوان سكناها ومع هذا فهي لم تفقد الأمل !!

وظلت فتاتنا تعيش على هذا الأمل سنوات وسنوات تسللت الكهولة أثناءها الى محياها الوسيم وظهرت أثارها فيما تغضن من وجنتيها ولكنها تأبى رغم ذلك أن تعترف بما تقدم من سنها . ظلت تعيش في أحلام اليقظة تترقبه في كل حركة يخفق بها الزقاق الطويل وتصيخ بسمعها لكل طارق ولو على أبواب جيرانها خشية أن يكون قد ضل سبيله الى بابها وهي لهذا دائمة الزينة تتناول أعمالها في خدمة البيت بأطراف أصابعها في رشاقة العروس المجلوة من ليلتها .

وتضحك جاراتها لما تتكلف من الاناقة في غير مناسبتها وبما لا يليق من تقدم سنها .. فأما العارفات منهن بدقائق النفس كنتيجة للتجارب فيرثين لها ويجد فن باللوم على أبيها الذي هيأها لمثل هذا الهوس وأما البدائيات فحسبهن ما يجدن في سيرتها من مفارقات تغرى بالسخرية منها .. وهن لهذا يطلقن عليها خالتي كدرجان » .



صبيّ السلطان

صبي السلتاني

والسلتاني نفع الله شواء كان معروفا بطريقته الخاصة في شى اللحم في أكثر مدن الحجاز يوم كان اللحم وحده عمدة الطعام وكان سعره مشويا في دكان السلتاني لا يزيد عن قرشين للرطل .

لا أدري لم سمي هذا النوع من الشى (سلات) الا أن كان اشتقاقا من اللغة ، ففي اللغة سلت الشيء قطعة وكان السلتانى في بلادنا يقطع اللحم بصورة فنية بعد تجريده من العظم الى شرائح خفيفة ثم ينصب في دكانه (منصة) عالية تتوسط الدكان يعتلي فوقها على كرسيه ويجعل أمامه كانون الشواء وهو كانون واسع يعلوه حجر رقيق الصفحة يبسط عليه شرائح اللحم ويتحلق الزبائن حوله تحت المنصة « هات من فضلك نصف رطل .. وقمر معاه العيش » .

وهو لا يعطيك نصيبك من الشواء الا منجما .. ملقاطه يتخلل شرائح اللحم ليلتقط الناضج فيجعله في طبقك وهو لا يزيد بحال عن قطع معدودة خمس اوست تتلمظ بها لبينما ينضج الباقي فيوافيك ساخنا طبقا بعد طبق .

واكبر ظني أن استاذنا القنديل ادرك اخر هذا العهد وكان أحد زبائن (السلات) يوم كان يعيش في مكة عاملا في رئاسة تحرير صوت الحجاز وكان مغرما بدكاكين الشواء من لحوم وقلوب واكباد وكان معروفا لفوالة باب العمرة وأصحاب المطبق ، والمعصوب فيها .

وكان من أشهر دكاكين السلات في مكة دكان عم خليل السلتاني بالقرب من باب العمرة وهو رجل طويل عريض ما بين المنكبين تزدحم بطنه البارزة بين الكانون والكرسي فوق المنصة فينثني ضاغطا عليها ليلتقط الناضج من الشرائح في أقصى طرف من حجر الشواء . وكان زبائنه يستمرئون الطعام عنده لفنه وفرط عنايته بتشريح قطع اللحم وشيها وهو الى هذا خفيف الظل حاضر النكتة يرسلها بداهة فيضج الدكان بضحك المزدحمين من زبائنه وتصافح اذنه اختها من احد الطاعمين فيرسلها قهقهة عالية تهتز لها مراقية وتسمع قرقرتها في بطنه كأنها قرع الاناء من النحاس .

وصاحبنا خليل السلتاني كان معروفا الى جانب فنه في الشواء وبراعته في النكتة بحرصه على الهللة لا يشتري بها الابرة الا اذا عز على امه أن تستعيرها من الجيران أو ضاق الجيران بها .. واضطروها لتترك خليلا يلبس قميصه بادى الشقوق .. وعندها يجد خليل أن لا مناص من الهللة يقدمها قربانا على مذبح دموع امه الغالية .

ويبدو حرص خليل وشحه البالغ واضحا في طريقته وهو يختار صبيه في الدكان .

كان من مميزات صبيه (أبو طافش) انه أمين على دكان عمه بشكل نادر ولكن الخبثاء حول خليل لا يعللون أمانة صبيه بما يعرف من خلال الأمناء لهم

يقولون أن فهمه لا يحيط بالحيل التي يجب أن يمتاز بها المختلس فهو اذا صفا ذهنه مرة واستطاع أن يعي ما فوق العشرة في حساب الهلل عجز في مرة أخرى أن يحصى أكثر من الخمسة أو اضطر أن يقول لك انها خمسة وثلاثة وعليك معرفة مجموعها وكل هذه الذهنية لا تجرأ على اختلاس الحرام لأنها ستلشاث عند أول ملاحظة تواجهها فمن الخير أن يكون : « الباب اللي يجيك منه الريح .. سدوا واستريح ».

كان خليل يعرف هذا في صبيه ولهذا عاش مطمئنا اليه راضيا به ولم لا يطمئن ويرضى وهو الى جانب هذا قنوع حسبه من عمه ان يملأ بطنه من فضلات ما يطعم الناس دون أن يطمع في أجر لخدمته على غرار ما يفعل غيره من الصبيان.

وهو في خدمته (ببطنه) غير مغبون لان كفاءته في الخدمة لا تتخطى أبعد من هذا المستوى في سوق الصبيان.

- اجرى يا (أبو طافش) اشتري ليمونة للزبون من عمك سعيد من قريب » .. نعم يشتريها من عم سعيد .. ولكن عم سعيد لا يوجد في الدكان هل يشتريها من غير عم سعيد ؟ هنا أكثر من بائع ليمون .. ولكنه لا يحب عصيان عمه .. فلينتظر عم سعيد .. لينتظره ساعة أو ساعتين فطاعة الأمر خير سلوك الأدب .. ربما قلق الزبون ولكن ما علاقته بهذا :ما دام عمه لم يأمر بشرائها الا من عم سعيد.

خذ يا (أبو طافش) اعط الطبق للزبون في الركن على يمينك .. ولكن (أبو طافش) لا يعرف يمينه من شماله فيعود بالطبق .. فين يا عمي .. !

- يا واد شوف الراجل هناك أبو احرام اصفر ..

ولكن (أبو طافش) من أين له أن يعرف الأصفر والأخضر فلا حيلة في الأمر الا أن يقف الزبون ليصيح به : أنا هنا ياواد .

ويرسله عمه بعد انتهاله من خدمة الزبائن - « خُذ ياأبو طافش » (الزبدية) اشتر فيها ربع اقة سمن للبيت ، فيمشي الى السمان ويزن له السمن ويفرغه في الزبدية فتستوعبه الزبدية الا شطرا ضئيلا بقي في كفة الميزان .. وهنا تتجلى الذكاء فقد نظر فاذا في قاعدة الزبدية قاع مجوف يسع بقية السمن وقبل أن يطول التفكير قلب الزبدية ليتلقى بقية السمن في قاعها المجوف فاذا السمن ملء الزبدية يسبقه الى الأرض .

فوقف مشدوها يتأمل غرابة ما حدث وتداعت معاني الغرابة في رأسه فرأى أن يتعمق .. فقلب الزبدية ليتأمل جوفها فما راعه الا السمن يسبقه من قاعها المجوف الى الأرض .

وراعه أكثر ضحكات المستهزئين حوله فاضطرب عليه الأمر .. حاول أن يفهم لم كان للزندية جوفان ؟ وهل من حرج في استعمالها معا ؟ ... واذا كان فأي معنى لهزء الناس وضحكهم .. - اضطرب عليه الأمر فتوترت أعصابه فلم يملك الا أن يقذف بالزبدية الى الضاحكين ويعود الى الدكان ليستوفي مكتوبه فيه .

وأعطاه عمه قطعة استامبولى ذات القرش ليشتري له تنباك كيزرون - « شوف ياواد دكان باصلوح عنده كيزرون زي الكهرم .. ترى لا تجيب تنباك مسود "ن

ويجرى أبو طافش الى باصلوح الحضرمي فلا يجد عنده الكيزرون الا المسود فيحتار في الأمر .. ولا تطول حيرته كثيرا فقد سمع باصلوح يحدث أحد الزبائن بأن الكيزرون لم يصل من جدة وفهم من ثنايا الحديث .. ولا أدري كيف استطاع أن يفهم - أن في جدة يباع الكيزرون مثل الكهرم في أكثر الدكاكين فقاده العزم في غير تردد الى طريق جدة ليثبت لعمه بطولته في الموقف .

انتظر العم خليل ان يعود أبو طافش بالكيزرون وطال انتظاره ثم طال ، فقام يتعقبه عند دكان باصلوح فلم يجد عنده ما يشفيه فذهبت به الظنون عشرات المذاهب الا أن يسوق الذكاء المفرط أبا طافش الى جدة في شراء الكيزرون .

ومضت يومان عانى العم خليل في دكانه من خدمة الزبائن عنتا لا يطاق وأشرق اليوم الثالث فإذا أبو طافش يشرق بإشراقته على باب الدكان وقد تأبط لفة التنباك .

- فين كنت يا (أبو طافش) ؟ فلم يملك أبو طافش الا أن تهالك على نفسه في اعياء شديد وراح يروي لعمه قصة التنباك الكيزرون في ألفاظ لا رابط بينها استطاع عمه بما تعود أن يفهم من لهجته الخاصة أن ذكاءه الخارق ساقه الى جدة في سبيل الكيزرون .

لم يدهش عمه كثيرا لما حدث فقد تعود مباذله الشاذة وأطواره الغريبة المتطرفة ورأى من الخير ان ينسى ما حدث ابقاء على خدمته المجانية .

ومضت الأيام تتوالى بعدها الأسابيع حتى أقبل العم خليل ذات صباح الى دكانه الذي تعود أن يجده مفتوحا مكنوسا فاذا الباب مقفل واذا أبو طافش

مسجى على كرسيه الذي تعود ان ينام فوقه عند الباب جثة فارقتها الروح.

واجتمع الناس على النبأ وتطوع بعضهم فنقلوه وكرسيه الى المستشفى حيث أعلنهم الطبيب موته بالسكتة القلبية.

الى هنا .. كان الأمر عاديا لا يزيد في مجموعه عن حياة شخص عاش كما يعيش كل غبي مر بالارض ثم انتهى به أجله الى حيث تنتهى الآجال بأغبياء الناس واذكيائهم على سواء.

ولكن ما كشفه الموت من فضائح ابي طافش كان من أروع ما تقصه نوادر الحكايات والطرائف.

ذلك ان العم خليل ما كاد ينفض يده من تراب القبر الذي وارى جثمان أبي طافش حتى تذكر ان لابي طافش صندوقا في مخزن الفحم داخل الدكان كان يجمع اليه ثيابه فمال الى شيخ الحارة يسأله رأيه في الصندوق وهو لا يعرف الا أنه مجاور جاء مكة من قرية في بادية الشام ذكر له اسمها فنسيها على مر الأيام.
وعلى عادة مشائخ الحارة « روح يا بويا اللى زى دا مسكين ايش عنده تعال نفتح الصندوق وان كان فيه ثوبين مقطعة نقسمها على روحه وبس !! »

ومضيا الى مخزن الفحم في الدكان وعالجا قفل الصندوق فاذا هو مكين متين التركيب بشكل اثار ظنونهما في بلاهة أبي طافش فالهب احساسهما حتى جاءا عليه بعد عناء شاق.

ولفت نظرهما أول ما لفت أن العمق في جوف الصندوق لا يتناسب مع مساحة

ظاهره فارتابا في أمره وتحسسا جوانبه وزواياه بدقة المرتاب فاذا يد العم خليل تصدم بزر بالغ الصغر حاولاه ليعرفا مهمته في الصندوق فلم يفلحا وبدا لهما أنه يقفل بشكل معقد على مخبأ سري فلم يدر بخلدهما الا أنه ينطوي على نقود فاشتعل حماسهما بدافع من عامل الطمع وعمدا الى ساطور في الدكان راحا يضربان به في شدة نبهت إليهما جيران الدكان فتقاطر الجيران .. ولم تمض بضع ثوان حتى احتشد الدكان بالفضوليين كلهم يسأل ماذا جرى .. ماذا حدث ؟

وسرى الخبر الى أقرب مركز للجندرمة (البوليس) فخفوا الى مكان الحادث ليروا امامهم صندوقاً من الصاج السميك اختلفت اضلاعه من هول الضرب دون أن يكشف مخبوه عن شيء .

ونقل الصندوق الى مقر البوليس وسيق البطلان خلفه مخفورين ورأى ضابط البوليس بعد أن سمع أقوالهما أن يستعين على فتحه بأحد الحدادين .

واستولت الدهشة على المجتمعين عندما انفلق المخبأ عن حزمة من قصاصات الصحف التركية وأوراق أخرى مكتوب بعضها بالحبر وبعضها الآخر بالقلم الرصاص .

لئن ذهبت بعض الظنون الى أن أبا طافش يتخذ في صندوقه مخبأ سريا معقدا يخفي فيه ثروة يجمعها فان قرائن الحال لا تؤيد مثل هذه الظنون فقد عرفوا من بلاهة وعيه مالا يستقيم مع هذا الوعي فكيف بهم وهم يكتشفون أن مخبأه السري يخفي قصاصات مضمومه بعناية الى جانب أوراق مكتوبة بشكل منظم .

ترى هل عاش أبو طافش يستعمل صندوقه دون أن يعرف عن مخبئه السري شيئا أم عاش معارف أبي طافش يتعاملون مع سر مغلق يتظاهر بالعي ويتصنع

البلاهة ويتقن دوره كممثل بارع .

ولعلنا نسينا أن نذكر أن وقائع القصة كانت في أواخر العهد التركي - شرع ضابط البوليس التركي - شرع يقرأ باللغة التركية في أول ورقة صادفها تقريراً يدين موظفا تركيا متقاعدا بالعمل ضد الدستوريين في استمبول وانصارهم في مكة فلاحت الدهشة على ملامحه وارتسمت بصورة واضحة عندما قرأ اسم المدين وهو شيخ وقور معروف في منطقة باب العمرة ولا يزال يعيش في البيت الذي يجاور دكان السلتاني .

وقرأ في غيرها اسماء أشخاص لا يزالون أحياء يومها كان بعضهم من الأتراك والبعض الآخر مكيين كانوا يختلفون الى بين الشيخ المتقاعد في أوقات سجلت عليهم تواريخ أيامها وساعاتها كما قرأ في بعض الصحف أخبارا عن بعض تنقلات جماعة من السوريين وآخرين من العراقيين كانوا يصلون الى مكة في أوقات متفاوتة فيتسللون الى بيت الشيخ لزيارته في ساعات سجلت أرقامها وتواريخها في أوراق مرفقة .

رأى الضابط أنه أمام واقعة حال دقيقة بالغة الغرابة فلم يملك الا أن يسجل بها محضرا يذيله بشهود الحادث ثم يصرفهم ليرفع به الى والي مكة المختص فيها بحماية الدستور .

وظل المجتمع بعدها في باب العمرة وفي كثير من مناطق مكة لا حديث لهم الا بلاهة أبي طافش الذي عاش لا يحسن جمع أكثر من خمس هللات ويتعذر عليه اذا امتحن ان يعرف شماله من يمينه أو يفرق بين الأصفر والأخضر ثم تنتهي نهايته بمفارقات يستعصى حلها على الفهم الذكي .

كاد أن ينسى الناس بمرور الأيام والأسابيع أبا طافش وما في قصة أبي طافش من غرابة نادرة حتى فوجئوا في أحد الأيام بأوامر القبض على الشيخ المتقاعد.

وتكشفت الحوادث عن القصة فإذا أبو طافش من أمهر الجواسيس الذين خدموا الدستوريين في كثير من بلاد العرب وقد ندبته السلطة ليحقق ريبتها في الموظف المتقاعد فمثل دوره باتقان رائع في دكان السلتاني ولكنه ما كاد يعد تقاريره ويشرف بمهمته على النجاح حتى سبقته الجبهة المضادة فكشفته للموظف المتقاعد.

ورأى الموظف المتقاعد أن يتخلص منه فاطلق في انفه وهو نائم على كرسيه دخانا مخدرا جاز أمره على الطبيب المناوب فأمر بدفنه حيا ليلقى حتفه بعيدا في غيابة القبر.



اليتيم المعذب



اليتيم المعذب

إلى الذين يناقشون أخطاء غيرهم على ضوء ما عرفوا من أخطاء أنفسهم أهدي هذه القصة.

- ايش هاذا اللي انت شايله ؟

- هاذا .. هاداشي ربنا قسم بو .

- ايوه .. لكن ايش هو ؟

- هوه .. تسألى ايش هو ؟ قولى الحمد لله ؟

- أيوه .. لكن برضه ايش هو ؟

- والله هو بزره .. ولدتها أمها في الصحية وماتت . الأم غريبة .. والبزرة قلبي انشرح لها .. طلبتها من الدكتور أربيها .. ما قصر الدكتور الله يجزيه بالخير سلمني هيا .

ـ بالله ما قصر أعطاك هيا ؟ .. الله يجزيك بالخير !! يا دكتور !! انت بالله راجل هادا طولك ! وهادا عرضك ! ينضحك عليك .. يعني أحنا ناقصين غلب .. رايح تجب لي غلب فوق غلبي .. صدقوا أهل المثل لما يقولوا : ما كفاني أبويه راح أبويه جاب أبوه .

• • •

قالت هذا وهي تضرب بيدها على صدرها في أسف واستياء ، ثم ولته أكتافها وهي تواصل تقريعها في ألفاظ جافية وعبارات قاسية : (قال أعطى له هيا الدكتور ما قصر .. الهى يقصر عمرك أنت والدكتور اللي أعطاك هيا .

لم يأبه الشيخ لجفاء زوجته ، ولم يكلف نفسه عناء الاستماع الى تقريعها الجافي .. فقد دلف الى مخدعه وشرع يهيىء للطفل مضجعا فوق (الكرويته) ويسنده ببعض المخدرات .

كان شيخا تبدو عليه سمات الصالحين من أصحاب التقوى . كان عف اللسان لا يفلت منه الحرف البذيء ، ولا تبدر منه الكلمة الا في معروف أو احسان .. كان يعرف سلاطة لسان زوجه ، ويعرف من سوء طواياها ما يثير روح الجبان ؛ ولكنه كان يؤمن في قرارة نفسه أنها انسانة تستحق الرثاء والعطف أكثر مما تستحق المقت .

كان يرى أن بعض الاشرار والعصاة والآثمين ، وكذلك أصحاب النوايا السيئة في الحياة من الجبابرة ، الى الطغاة ، الى السفاكين والقتلة ، قد يستحقون العطف على ما امتحنوا به لملابسات خاصة أكثر مما يستحقون اللوم .

كانت له فلسفة عميقة في تنشئة الطفل وتربيته وتعويده على ما يتعود .. كان

يرى أن بيئة الشخص وعادات محيطه مسئولة في المقام الأول عن جميع تصرفاته في الحياة . فزوجه اذا كانت شريرة أو سليطة اللسان فمن الغبن أن يمقتها .. وجاره الأناني الظالم لا يراه مسئولا الا الى حد . لأن الملابسات التي صادفته في الحياة هيأته من حيث لا يشعر لمثل هذا الخلق .. وكان يرى أن اللصوص والقتلة لو صادف نشأتهم تهذيب عادل لتورعوا عن سفك الدماء ، ووجدوا في أعمق خفاياهم وازعا دينيا ، أو أدبيا ، يهديهم الى الاستقامة والنبل .

كان يرى هذا الرأي في الحياة . وسواء بالغ في تقديره ، أو تجنى به على تحديد المسئولية في نظر المشرعين فان حماسه لما اعتنق كان لا يدانى .

وتركت هذه الفلسفة أثرها في تكوينه فانطبع عليها ، واندمج في تفاصيلها حتى ملكت تفكيره في جميع ما يصادفه من أخطاء الحياة ، وحتى أصبحت أحكامه على مساوىء الناس لا تصدر الامن هذا المعين .

كان يؤذيه غش المحتالين ، ولا يجهل أساليبهم فيضحك ملء نفسه لما يبذلونه من جهود حسبوها تفننا وبراعة .. وكان يغبنه بعض (الشطار) فيأسف في نفسه لما فقدوا من تربية ويسأل الله لهم العون .

كان يرتفع عليه الصوت الجرىء أو السفيه فتملك الفلسفة عليه أعصابه وتسمعه يهمس الى نفسه في صوت خافت (ان صاحبي مسكين فقد عودته بيئته ما تعود !!) .

ويصادفه عتل في الحياة لا تضمر طواياه حبا لأحد ، ولا يتمنى الخير للخير ، ولا تسمو أخلاقة عن الاثم ، أو سوء الصنيع . فلا يلبث أن تعاوده الفلسفة ،

وتسمعه يتساءل : (ترى ما هي أنواع الرواسب التي تركت أثرها في تكوين هذا الضعيف ، وكم عدد العقد النفسية التي لوت استعداده نحو هذا الطريق ؟)

فهل نستغرب بعد هذا ونحن نراه يصمد أمام زوجه العتية وهي تغلظ له القول : (أنت بالله راجل .. هادا طولك .. وهادا عرضك يضحكوا عليك .. ما كفاني أبويه .. راح أبويه جاب أبوه !!)

انه يعلم أنها نشأت مظلومة في بيت أبيها ، وأنها كانت تعاني من طغيان امرأة أبيها ما جعلها تشعر بالنقص ، وأنها اليوم بعد أن زال عهد الطغيان ، وأصبحت سيدة بيتها الجديد تأبى الا أن تكمل ماكانت تشعر به من النقص بهذا الاستعلاء المقيت ، والغلظة الجافية . فهل يلومها على ما جنى غيرها ؟ وهل يؤاخذها فيما ليس لها منه بد ؟ انه - فيما تراه فلسفته - ظلم يأبى خلقه العالي أن يرتكب وزره !

فليتغافل - اذن - عن غلظتها وجفائها ، وليدلف الى مخدعه ليهيئ للطفل الذي انشرح صدره له ، والذي استوهبه من دكتور الصحة مضجعا فوق (الكرويتة) ، ويسنده ببعض المخدات .

*****

ياواد انت مين يعرف أبوك ؟ أنت رزيه .. ربنا رزانا بها في الدنيا وبس .. يعنى كان الدكتور حق الصحية اللى ضحك على الشيبة اللي مات الله يرحمه .. وخلاه يشيلك يجيبك عندي ما قصد الا اذيتي ؟ يعنى أنا اليوم اثنا عشر سنة وأناغاطسه في غلبك ! .. تقدر تقل لي ايش الفائدة اللي جاتني من هادا الغلب ؟

شوف يا واد .. أنا ما عاد أقدر أصبر أكثر مما صبرت .. بكره أهرج لك عمك

أبو فروة ياخذك يشغلك عنده في الحجر والطين لو تجيب حق أكلك ، وتريحني من خلقتك طول النهار .

وأعتقد أن القارئ سوف لا يفوته أن (الواد) الذي عزمت السيدة أن ترتاح من خلقته ليس هو الا طفلنا الذي تركنا الرجل الطيب ينقله من الصحة الى البيت ، ويمهد لنومه في مخدعه الخاص فوق (الكرويته) ، كما لا يفوته أن السيدة هي نفسها السيدة التي استقبلته بالجفاء الذي استقبلته به في فصلنا الأول . وقد شاء سوء طالعه الا أن يحرمه الحنان والعطف ، وحسن التوجيه ، فقد فقد الرجل الذي تبناه قبل أن يحبو على الأرض ، كما فقد أبويه من قبل . وترك لرحمة السيدة العاتية تذيقه من قسوتها ما يسئ عقيدته في الحياة ، ويترك في نفسه رواسب لا تمحى آثارها .

نشأ الطفل ـ ونحب أن لا ننسى اسمه (علوة) في حجر من لا تختلج فيه عاطفة من الشفقة . وعندما درج في حنايا البيت كانت الغلظة تلاحقه اذا تحرك أو سكن ، اذا نطق أو صمت ، اذا أحسن أو أساء ، فانطوت خفاياه على شعور غامض لون له الحياة بلون قاتم لا يلمح فيه ضوء ، ولا ينفذ منه نور ، وهيأ له عقله الصغير أنه لا معدى في الحياة من أن نعيش ظالمين أو مظلومين .

علمته مربيته كيف يخضع لجبروتها فرسب في نفسه تقديس القوة بكل ما في القوة من طغيان وعسف ، وعلمته الاستهانة بحقارته فانطبع على تحقير الضعيف عن عجز ، أو حاجة ، أو رقة .

واليوم وقد طفح الكيل وهو يتخطى عامه الثاني عشر ، فان ظروفه الخاصة تسلمه الى العم أبي فروة ليمتحنه بأقسى ما يتحمله فتى ضعيف ، ويضع على كاهله ما تنوء به سنه الصغيرة .

كأن المعلم أبو فروة مهندسا معماريا من الطراز الناجح في مكة ، ولم يكن يعتمد في نجاحه ما يعتمده المهندسون من أصحاب الشهادات من أدوات هندسية ، وقواعد حسابية ، ومعادلات فنية .. بل كانت معلوماته الواسعة في الهندسة تتركز في عصاه الطويلة التي يتوكأ عليها ، ويلكز بطرفها حماره القصير الأسود !!

كان كثير من ملاك الأراضي في مكة يقدسون كفاءته في الهندسة المخاخية ، ويعتمدونه في مهام أعمالهم المعمارية :

- (يابا .. ايش رأيك في هذه الوصلة الأرض .. نبغى فيها ديوان بشمسة ، ومجلسين بمخلوناتها ، وصففها ، وخزائنها ، ونبغى المبيت يكون فوق المخلوان .. قدامه خارجة ، ومطبخ ، ودقيسى كبير شوية) .

ويهز (اليابا) عصاته ثم ينقر بها الأرض كأنه يستوحي عمارها من الجن تخطيطا يتفق مع أوضاعها ، ثم يشرعها ويبدأ في قياس الأرض بها .. انها وحدته القياسية التي لا تخطئ ، فطولها محدود بالذراع والبنان ، ومعدلها دقيق المعيار .. ان في استطاعته أن يمسح الأرض بعصاته في لحظات ، ثم يفترش الأرض فيسوى قطعة من رملها بكفه ، ثم يخططها بما يشبه الرموز ، ثم يستوى واقفا لينقر بعصاه من جديد ثم يصور الخريطة لزبونه في صفحة الفضاء باشارات تستوعب مساحة الأرض مستعيناً بعصاه لتقريب الأبعاد ، وتحديد مداخل العمارة ومخارجها ، ومكان الغرف منها .

وكانت شهرة (اليابا) متسعة باتساع أعماله في نواحي مكة ، وكان يشرف على مئات البنائين في عشرات العمارات ، فإذا رجته مربية علوة أن يضم علوة الى أعماله في الطين والحجر لتستفيد بأجره اليومي ، وتزيح كابوسه الثقيل عن صدرها طوال ساعات النهار . فان الأمر لا يكلف (اليابا) أكثر من أن ينادى به

(روح ياواد اسأل عن بيت عبد الرحمن عطرجي في الشبيكة ، وقل للمعلم سلمان يشغلك عنده حتى أجي) .

واندمج علوة في نفر من أترابه كانوا يحملون زنابيل التراب على أكتافهم في صفوف أخذ بعضها برقاب بعض ، يهيمن عليها مراقب طويل الهام ، صارم السحنة ، يهتز في يده حبل طويل مفتول يلهب به ظهورهم كلما غدوا بالزنابيل مثقلة أو رجعوا بها فارغة .

لم يكن العسف على علوة جديداً فقد ألف هذا اللون من الحياة في بيت مربيته وانطبع تفكيره المحدود بمعانيه القاتمة ، فأصبح لا يستغرب القسوة على المهين والضعيف بقدر ما يستغرب الشفقة التي لا يسمع عنها الا فيما يقصه الأطفال من جيرانه دون أن يعرف مدى ظلها على وجه الأرض .

ومضت الأيام بعلوة طويلة مملة كان لا ينتهي من نهاره فيها بين العمل القاسي ، والشدة المريرة ، حتى يستقبله بيت مربيته في جفاء أقسى .

وغاب في أحد الأيام مراقب العمل فاستطاع الصغار أن يتلكئوا وراء الحفر ، وسمعهم علوة يذكرون بركة ما جل في أقصى المسفلة ويصفون متعتهم على ظهور الحمير التي استأجروها لنقلهم اليها في يوم له أن يلهو في زمرتهم ، وأن يمتطى صهوة حمار مما يركبون ، فشاقه الحديث ، وراقت له الفكرة ، وتمنى لو أتيح له بالثمن . ان مربيته لا تبيح له قرشا واحدا من أجره اليومي .

ـ انت يا واد ان كان بدي أقعد أحاسبك على اللي صرفته عليك حتى صرت في هذا الطول ، أخاف تغرق في الحساب .. حط يا واد فلوس الأجرة كلها في تبسي

أهلهل جتتك .. حط السموار اللي في الطاقة . ترى أن لقيتها ناقصة هللة .. أهلهل جتتك .. حط الفلوس وتعال غسل النحاس اللي ملموم طول النهار .. شوفو هناك جنب الحنية اخلص قوام علشان تجيب القاز وتفرش الخارجة .. اخلص يا واد لا تنخل قلبي داهية تنحل اللي وراني وجهك في يوم أغبر) .

وبذلك لا يجد علوة مندوحة لأن يتمتع (بهللة) واحدة من (فلوس) أجرته . فهل يجد مندوحة لاقناع مربيته لتمنحه (أجر) ركوب الحمار وفرصة للخروج فيها ؟

ان هذا آخر ما يمكن أن يقال في شأن مربيته ، وانها فكرة لا يصح بحال أن يجرأ عليها فتى كفتانا (علوة) .

كان يعلم بحكم ما فطر عليه في بيت مربيته أن التماس الحنان ، واستدرار الشفقة أساليب يسمعها من صبيان الجيران عندما يقصون قصص أمهاتهم ، أما حقائقها فمعان لم تصافح حياته فيما عاش . وكان يعلم بحكم ما نشأ ـ أن من حقوق مربيته أن تتمتع بخشونة سطوتها على مثل شخصه الضعيف ! وأن عليه أن يحنى هامته لكل مايناله من قسوتها ، وأنه ليس له أن يدعى لنفسه بجوارها حقوقا الا اذا استطاع أن ينتزع لنفسه ما يستطيع انتزاعه اختلاسا ، أو تحايلا ، أو بأية صورة تتفتق عنها ذهنيته الصغيرة .

كان يختلس من قيمة القاز (هللة) واحدة ، ومن قيمة العيش والسكر والشاي والفحم ما يستطيع أن يختلسه بصورة لا تترك أثرها .. وكان يحاول ألا يشترى حاجاته الا من حانوت مزدحم على أمل أن يزوغ بالبضاعة في غفلة من صاحب الحانوت ، فاذا أطبق عليه صاحب الحانوت فلا مانع عنده من استيفاء ما يستوفيه من ضرب ، أو شتم ، لأن الحياة فيما يصوره عقله المحدود لا تعدو أن

تكون غالبا فيها أو مغلوبا . فاذا غلبت فما أحلى أن تهنأ بما تهنأ به المربية في البيت ، ومراقب العمال بين أكوام التراب ، واذا غلبت فما أحرى أن تحنى هامتك صاغرا .

وكانت متعته بما يظفر من اختلاس تتجلى في المزامير التي يشتريها .. لينفخ فيها سيالا من روحه المعذبة لا ينظمها نغم معروف ، أو لحن منسق . ولكنه يذوب فيه أنين قلب معذب مجروح !!

وكان يجد لذته بما يختلس عند بائع البليلة أو (الليم) أو صاحب القثاء الذي يفترش الأرض ببضاعته بين زحمة الصبيان وهو يصيح (شرشوا) فينهال الصبيان على قثائه يلتهمونها مغموسة في اناء الماء المالح الذي يسميه (الشرش) .

كان علوة تغريه شهوة أمثال هذه المعروضات كما تغرى أترابه من الصبيان . ولكن مربيته لا تقنع بمثل هذه الترهات فتمنعه (الهللة) الواحدة اذا سولت له نفسه أن يقتطعها من أجره وتذيقه من ألوان الضرب مالا يحتمله جسمه فتفتقت حاجته عن شتى طرق الاختلاس ، وتعلم بالتدريج كيف يقتطع الهللة والهللات من أثمان السلع الصغيرة التي تكلفه مربيته بشرائها ، واستمرأ هذا اللون بمرور الأيام حتى فقد حساسيته بما يفعل وأصبحت الحيلة لشهواته جزء في كيانه .

كانت قهوة (الحمارة) في الشبيكة مجمعا للحمارين في أكثر ساعات النهار ، وكانت ساحتها الصغيرة تكتظ بعد صلاة العصر من مساء كل يوم بهم أكثر مما تكتظ في بقية اليوم .. كانوا يصفون حميرهم تحت جدر البيوت القريبة من القهوة يمينا وشمالا استعراضا لطالبي الايجار .

كانوا يخضبون أجزاء من جسمها بالحناء في لون وردي جميل ، ويحلون

براذعها بأقمشة براقة ، وينيطون بأعناقها قلائد من الودع أو الفصوص و(الشناشن) التي توسوس كلما اهتزت رءوسها في ايقاع لذيذ !!

وكان المكارون يدربون الأقوياء منها على الخطو المنظم عنقا أو شدا ، ويعلمونها الطريد في أسلوب لا يختلف كثيراً عن أسلوب الطريد في الخيل . بل أن بعضها كان لا يعجز أحيانا أن يسابق الخيل ، كما أن بعضها يحمل من أثقال الركاب ما تنوه به البغال .

وكان متعودوا الأسفار بين مكة وجدة يعتمدون أقوياءها في رحلاتهم الشاقة ... فقد كان منها من يقطع الرحلة بين البلدين في نحو ٨ ساعات . بينما تقطعه الجمال في ليلتين متواليتين قبل أن تعرف قفارنا خطوط السيارات .

كما كان بعضها معدا للمتنزهين في ضواحي مكة البعيدة يتأجرونها من مواقفها في الشبيكة ، ويمتطون صهواتها في الأصائل الجميلة من أيام الربيع والصيف .

وكان يوم الجمعة عيد المتنزهين على صهواتها .. تزدحم مواقفها في الشبيكة بطوائف الشغالين ، والعمال ، وصغار الطلبة ، وأنواع من الطوائف التي تحتفي بعطلة الأسبوع من هذا اللون ، وتبذل في متعتها جزء مما اقتصدته من أجرتها في أيامه .

وكان لها عدا موقف الشبيكة موقف في خريق المعلاة وغيره في مدخل أجياد ، وغيره عند باب الصفا .. يكتظ بالباحثين عن النزهة فوق صهواتها .

ولم يكن لصاحبنا علوة عهد بهذا اللون من الحياة فقد عاش في ربقة مربيته

محدودة كلفته مربيته بها .. أما فكرة العطلة فشيء جديد لم يطرق سمعه قبل اليوم الذي سمع فيه زملاءه من عمال الطين والحجر يلغطون به ، ورآهم يحسنون له مرافقتهم في أصيل يوم الجمعة الذي اتفقوا على قضائه فوق صهوات الحمير .

كان قد اقتصد بطريقته الخاصة التي تعلمها من قسوة مربيته ما يزيد عن العشرين قرشا .. سرقها من أثمان الحاجيات التي يشتريها لها ، واستطاع أن يغيب بها من البيت دون اخطار أو انذار .

ورأى نفسه لأول مرة يعتلي صهوة شيء .. أي شيء !! فهزته النشوة أكثر مما هزه الحمار ، ولذ له الانطلاق في فضاء الله المتسع ، وتمتع بأصيل لم يظفر في حياته المجدبة بما يضاهيه جمالا ولذة .

وعاد الى مربيته بعودة الليل يبكي .. قال : « اني رحت الى السمان كما أمرت فلما وزن السمن زاحمني بدوي بكتفه فوقع السمن على الأرض . فأمسكت بالبدوي فضربني ، وجرى . فأسرعت الى مركز الشرطة أشكو فأرسلوني مع أحد العساكر فقضينا طوال ساعات العصر نبحث عن البدوي فلم نعرف له مكانا . »

لم يكن في قصته حرف صادق . ولكنها كانت قصة محبوكة أتقن الخوف تأليفها ، وكان يمكن أن تجوز على مربيته/لو أرادت المربية أن تقدر درجة الصدق فيما ألف . ولكن مربيته لا يعنيها الصدق في أعماله بقدر ما يعنيها الربح والخسارة منها . فاذا خسرت اليوم السمن الموهوم فإنها خسرت الى جانبه ساعتين أضاع الولد في أثنائهما خدمة البيت ، وترك أعماله معطلة ... ولا يعوضها ويشفى أساها من ذلك الا (علقة) حامية تدمى أطرافه وتنهك جسمه .

وتلقى علوة (علقتها) بأطراف ألفت (العلقات) ، ومرنت أحاسيسه على

الامها كما مرنت احاسيس فقراء الهند على تعذيب أجسامهم بمالا يحتمله جلد ، وأصبحت تجد من غرائب اللذة فيها مالا يصدقه عقل .

واستمرأ علوة عادة النزهة التي تعلمها فوق ظهور الحمير ، واستهان في سبيلها بكل الصعوبات التي كان يتخيل أنها لا تحتمل فأصبحت ديدنه في كل أسبوع يلفق في سبيلها ما يصادفه من تلفيق ، ويختلس من أجلها ما تقع يده عليه دون أن يبالى بفداحة ما يرتكب !! وكيف يبالي ؟ وهو اليائس الذي فقد العدل ، كما فقد الحب . وأصبحت الحياة لا تعدو في نظره المحدود أكثر من ختل لا يظفر فيه الضعيف ، الا اذا وطن نفسه على مثل المكاره التي يلقاها من مربيته القاسية ، والتي وطن نفسه بمرور الأيام عليها .

****

لم يظفر علوة في حياته المريرة التي كان يعيشها في بيت مربيته ، أو بين عمال الحجر في مكان شغله براحة تسره الا في العصارى التي كان يختلسها للنزهة مع رفاقه فوق صهوات الحمير ، أو في الساعات القليلة التي كان يكلفه فيها (اليابا) بتوصيل المقاهي الى بيته في « دحديرة » جبل أبي قبيس .

كان (اليابا) يعيش مع زوجته التي أشرفت على الشيخوخة ، وفتاة لها لم تنهد في صدرها أثداء . وخادم أثقل السن واللحم على عجزها ، وتركها قعيدة في المطبخ كأنها صندوق عتيق ضخم لا يريم شعره عن مكانه أمام (الكوانين) .

كانت الزوجة ربة البيت ، ورئيسة جاراتها في الزقاق ، وكبيرة على كل من يعرفها من أول الدحديرة الصاعدة في جبل أبي قبيس الى نهاية العمران قبل قمته العالية . كما كانت مسئولة في نظر نفسها أمام جميع الملمات الهامة التي تلم بأقربائها ، ومن يلف لفهم من معارف مهما شط دار أحدهم أو بعد .

كانت صديقة المرضى في كل البيوت التي تعرفها أو تسمع بها ، وكانت حفية بكل من يحتاج الى معونتها رغم أمكانياتها الضيقة ، وكانت تشعر باحساس عميق بالميل الى بر ومساعدة الضعيف في حدود طاقتها .. وعندما كان علوة يتردد على بيتها يحمل زنبيل المقاهي كانت تلمح بعض معاني البؤس ينطق بها محياه فلا تملك الا أن تخفى في صدرها زفرة مكتومة ، وتتمنى لو استطاعت أن تتغلغل الى نفسه لتعرف خفاياه .. ولكنها كانت لا تجرأ . خشية أن تتفتح لها آفاق تسيئها ، ولا تقوى على علاجها .

وتبين لها بمرور الأيام أن مقاضى الزنبيل لا تصل الى بيتها في مقادير تتساوى مع ما تعرفه من مشتريات زوجها ، وأن حبات الموز أو المشمش يبدو فيها أثر النقص فأدركت باحساسها أن يد علوة تمتد الى الزنبيل لتشبع حرمانه من الفواكه ، أو تسد جوعه وما كانت تعلم أن قسوة مربيته واستئثارها دونه باللذيذ الطيب علمه الاختلاس .. وأنه بعد أن حذق فنون الاختلاس مما تأمنه عليه مربيته من أثمان مشترياتها . أصبح يستطيع أن يشبع رغبته من كل فواكه السوق بثمن ما يختلس من دراهمها ، ولكن طبيعة الاختلاس كانت تأصلت في نفسه ، وهيأته القسوة للثأر لضعفه من كل قوى .. فمرن على الختل ، وحذق فنونه ، وشعر أنه منقاد الى معانيه انقياد الشاعر الفحل الى ما يسبق لسانه من معاني الشعر .

ما كانت ربة البيت لتعلم هذا أو تفهمه ... فلم يتبادر الى تفسيرها الا أن علوة يشبع جوعته ، أو حرمانه من الفواكه التي يحملها الى بيتها . فراضت نفسها الكريمة على تحمل ما يسىء .. وكانت تعلل لزوجها أسباب النقص اذا شعر به .. بأنها تستوفى نصيبها من الفاكهة كانت تفعل هذا ايثارا لمثل هذا الصنف الجائع المحروم ، وتشعر في قرارة نفسها بارتياح لا يعدله حرمانها من لذة الفاكهة .

واستمرأ علوة هذا الاختلاس ، ولم يستيقظ ضميره المتبلد لسوء ما يفعل .. كما أبت طيبة ربة البيت أن تعاتبه أو تتركه يشعر بأنها تفهم ما يختلس ، وكان

اذا بدا على ابنتها أو خادمتها أنهما أدركتا النقص سارعت ربة البيت الى تعليل الحال بما يسكتهما وان لم تقتنعا ، وأمرتهما ألا يفصحا عن مثل هذه الظنون أمام زوجها . فكانتا تطيعان ما تقول برأ بشمائلها الكريمة .

وكان علوة لا ينتهي بزنبيل المقاضي الى بيت (اليابا) حتى يتشاغل بما يؤخر مقامه في البيت ويحاول أن يشارك الفتاة بعض أعمالها التافهة ، أو يعني بصف عرائسها وينظم الخرز عقودا للعرائس ، ويضيع الوقت في ترتيبه وتبويبه فاذا طال غيابه عن (اليابا) اعتذر له بخدمات تكلف بها في بيته .. وكانت الأم تصادق على ما يخترعه عنها لأنها لا تمانع في سرها بما تظنه استجماماً .. يغتنمه أمثال علوة من عناء أعمالهم التي لا تحتملها أجسامهم الذابلة .

ولكن علوة كان منقاداً الى معاونة الفتاة الصغيرة بشعور مبهم لا يتبين معانيه .. فقد كان قدها الرشيق ، وأعطافها الدقيقة ، ونظراتها الساهية تستهوي عواطفه في غموض لا يفهم تفسيره .

وكانت الفتاة على صغرها لاتجهل مركزها من علوة ، وتقدر حفاوته بعرائسها .. ولعلها كانت تشارك أمها في العطف على انسانيته المعذبة في شعور صامت لاتفهم من معانيه حرفا .

وطالت الأيام على مثل هذا النسق في بيت (اليابا) ثم انقطع علوة عنه فجأة وغابت أخباره عن العائلة ، وسئل اليابا عنه فلم يعرف شيئا ، وأرسل الى مربيته العجوز فذكرت : أنه ترك بيتها الى غير رجعة ، وأنها دائبة البحث عن مقره دون جدوى .

*****

كانت شؤون الأمن بين المدنيين في هذا العهد الذي تجري فيه حوادث روايتنا - أواخر العهد العثماني - مسؤلة من قومسير البوليس الذي يعينه والى الحجاز التركي في مكة أما شئوونه في أطراف المدن والبادية فكانت مسئولة من شريف مكة - أميرها - الا في الحوادث الهامة .. التي تستدعى الا ستعانة بالجندرمة الاتراك ، أو رجال الجيش منهم .. فان الوالي التركي يندب العدد الكافي منهم لاقرار الأمن الذي يحاول اقراره بالبندق ، والمدفع . ولهذا كان الأتراك يكثرون من انشاء الحصون والأبراج على طول الطرق ويوكلونها الى حراس أشداء يتناوبون الاقامة فيها ، كما أن شريف مكة كان يبذل بحكم مكانته بين القبائل ، وسطوة حرسه الخاص (البواردية) ما يمكن بذله في سبيل الأمن ، ولكن شؤون الأمن بالرغم من هذا أو ذاك كانت مثلا عاليا للفوضى والعبث .

ولعلى لا أبعد كثيرًا اذا عللت أهم أسباب العبث والفوضى بتوزيع المسئولية في البلاد بين حاكمين كانا يتنازعان الاختصاص في أوضاع غير محدودة ، ومسئوليات غير مركزة .

فالدولة العثمانية كانت تولى أمر الحجاز أحد أشراف مكة من البيت القديم الحاكم فيها .. ومع هذا كانت لا توليه ثقتها الكاملة .. بل تندب الى جانبه من يمثل سلطتها من الأتراك في وظيفة (والى) ليشرف على شؤون المال والادارة والأمن .. فيرتبك شأن الامارة وتضيع الحدود بين صاحب الإمارة وصاحب الولاية ، ويتعذر معرفة المسئول الأول عن شؤنها . ولو وكلت أمر أحدهما الى الآخر لتركزت المسئولية ، وتحددت الاختصاصات .

لم يوكل أمر أحدهما الى الآخر .. فأباحت لهما تنازع الاختصاص ... لذلك كانت أمور الرعايا تتراوح بين السلطتين ، وكان في استطاعة القوى منهما أن يوسع دائرة نفوذه على حساب الآخر ، وأن يفرض شكيمته في البلاد دونه .. فلا غرابة أن يعبث العابثون في بحبوحة هذه الفوضى ، وأن يستغلوا فرصة تنازع

الاختصاص لصالحهم .

كان بعض أشراف مكة لا يتورع عن تشجيع بعض العابثين .. ليثبت للقصر العالي في الآستانة عجز الوالي ، وعجز دوائره البوليسية ، والدفاعية عن اقرار الأمن .. كما أن بعض ولاة الاتراك كان لا يبالي بتمرد العابثين الا اذا كانوا من قبائل توالى بيت الشريف ليثبت لمراجعه في الآستانة أن منشأ الفوضى بيوت الموالين للأشراف . ولذلك كان بعضهم يتكلف الإغضاء عن كثير من حوادث السرقة ليحصر جهوده في حوادث خاصة يرى أنها تستطيع اثبات علاقتها ببيوت الأشراف .

بذلك ضاع الغرض السامي من اقرار الأمن في البلاد ، وحل محله تربص المتنازعين على الحكم للدسيسة ضد بعضهما .. ولهذا وجد العابثون بالأمن ميدانا واسعا لأعمالهم .. فكانت بعض القبائل تعبث بأمن الطريق ، فينطلق عسكر الوالي في أثرهم حتى يظفر بهم في القليل ، أو يشردهم في الأكثر ليستأنفوا عبثهم في مناطق أخرى .

وكان بعضها يفرض الأتاوات على الحجاج فيدفعونها صاغرين ، ثم يصل الأمر الى شريف مكة فينذر ويرعد ثم لا يفعل الا ما يفعله الأتيكيت ، أو يصل الى الوالي فيأمر جنده بالكر والفر ، واطلاق البنادق في أعقاب المعتدين .. فلا يظفر الا بما يسكت الرسميين وان لم يقنعهم .

وكانت مكة الى جانب ذلك ممتحنة بطائفة من السرقة والنشالين استطاعوا أن يبرعوا فيما امتهنوا براعة نادرة المثال في تاريخ أمثالهم .

وقد اشتهر منهم في هذا العهد الذي نقص حوادثه :

« أبو سعيد - أمين جاوى - حامد مخربش - عبد الرحمن عورة - الدنكاشى - وكثير غيرهم ».

كان بعضهم يراهن على نشل ما في جيبك ، ثم لا ينتهي حديث الرهان حتى تكون محتوياته قد انتقلت اليه دون أن تشعر ، وكان بعضهم ينذرك لتتحصن ضد عدوانه ، ويعين لك الساعة التي يسطو فيها ثم لا يخلف انذاره رغم جميع الاحتياطات التي تحاولها .

وكانوا مع هذا معروفين بأشخاصهم لدى المسئولين ، والأهالى ، ولكن ذلك لم يمنعهم من العبث لأن فكرة اقرار الأمن في البلاد لا تشغل رءوس المسئولين في بيت الشريف ومركز الوالي بقدر ما يشغلها العمل لسياستهما المتضادة .

كان الأهالي يقولون - وقد ظلوا الى وقت طويل يقولون - أن الدولة العثمانية رحيمة !.. ولكنها لم تكن رحيمة بقدر ما كانت مهملة .. ولم يكن اهمالها يصدر عن عجز بقدر ما يصدر عن غرض .. كانت دبلوماسية ممثلها التركي ، تقتضيه أن يفسح صدره للعاتين ، وأكثرهم في مكة من الحجاج وبعضهم من الأهالي لئلا يهيئ أعداء من كل صنف وبحسبه أن يتربص الفوضويين ممن يشتبه في موالاتهم أو قربهم للاشراف ليضيف ذلك الى أدلته ضد الأمير دون أن يبالي بالغرض الأساسي من تعيينه في مثل هذا المنصب !!

ولو استطاع أن يتفق أصحاب الامارة ، وأصحاب الولاية على اقرار الأمن للأمن لما عجزوا عن تحديد المسئولية وايقاف العاتين عند حدودهم ؟

وقد ظلت ذيول المأساة الى عهد طويل بعد جلاء العثمانيين من الحجاز .. فإن الملك حسين الذي استطاع أن يستقل بأمره في الحجاز ضرب بيد من حديد على جميع العاتين والسرقة في مكة ولم يعجز عن قطع دابرهم فيها .. وقد فعل قريبا

من هذا في كثير من المدن . ولكنه عجز عن تأمين جزء هام منها أخصه في طريق المدينة .

وتلك هي ذيول المأساة فإن الحسين كان يخشى تمرد القبائل القوية التي كانت تعيش مدللة في عهد العثمانيين وأن يسرى هذا التمرد الى جيرانها فتسوء العاقبة ، فحاول أن يداريها بالقسوة مرة والرأفة أخرى ، وهو يؤمل أن يصل على مر الأيام معها الى نهاية حاسمة ، ولكن الأيام جلته قبل أن يقضي أربه منها .

ويبدو هذا واضحاً في معاملته مع غير القبائل القوية وشذاذ اللصوص في المدن من جميع الألوان الذين لا تجمعهم عصبية واحدة ، فانه حزم أمره في شأنهم دون أن يبالي ، واستطاع أن يقضى بحركة واحدة على جميع أعمالهم .

لم يسترسل الفصل السابق بنا في غير مجرى حوادث قصتنا فانه بحث كان لا بد منه لاستطراد قصة (علوة) الذي كنا رأينا قسوة مربيته تعلمه الإختلاس وتدفعه في حركة لا شعورية الى مهاوي الحياة ، والذي رأيناه ينقطع فجأة واحدة من بيت (اليابا) ويغيب عن بيت مربيته ، ويتركها تدأب في البحث عنه في غير جدوى .

لم يولد علوة منحرف الأخلاق أو مستقيمها ، وانما ولد كما تولد العجائن اللدنة قابلاً للتكيف والصيانة .. وأكبر ظني أنه لو مد في حياة مربيه الأول الذي استهداه من دكتور الصحة .. لهيأه المربي لما كان يعرف من ألوان الصلاح ، وبث في روحه هلاما طاهرا يضىء اتجاهه ويهديه الصراط السوي .

لكن القضاء فجعه فيه ، ووهبه سيدة لا ينبض في فؤادها حنان ، ولا يومض في حناياها بصيص من عطف .. ولقد كانت صادقة كل الصدق في أول يوم دخل الطفل فيه بيتها عندما ضربت بيدها على صدرها وأعلنت زوجها استياءها في

ألفاظ جافية وعبارات قاسية .

كانت صادقة لأن هذا الصنف لا يضمر أصحابه بما جلبت عليه قلوبهم الا أسوأ ما يضمره الحقد والشر .

فلا غرابة أن تقسو في معاملته رضيعا ، وصبيا ، وغلاما ، ولا غرابة أن تؤثر القوة في معنويته اللدنة وتهيىء منه انسانا لا يؤمن بالخير في الحياة لأن في الخير حروفا لم تطرق سمعه حين نشأ ، ولم يصادفه من معانيها ما يدله على مظانها في الحياة .

نشأ علوة منساقا - بعوامل لا يفقه كنهها - الى الثأر من الحياة .. في أشخاص من يواتيه الظفر بهم فكان لا يتورع عن اختلاس أو ختل أو سرقة ما يستطيع فيه الاختلاس ، أو الختل ، أو السرقة .. وكأنه بهذا يريد أن يضيف الى ثأره في الحياة ريأ لروحه الظامئة من طول ما أرهقه الحرمان .

وانه لماض في طريقه ذات مساء في منعطف من دروب أبي قبيس اذ صادفته فتاة صغيرة السن تحلى جيدها بقطعة ذهبية راقه بريقها ، وقدر لها ثمناً صالحا للتوسعة على شهواته فلم يتكلف أكثر من أن يدنو اليها ويربت على كتفيها فيما يشبه الحنو ، ثم يترك يده الأخرى تعالج عقدة الحلية في هدوء ، ثم يسلم رجله الى الريح قبل أن تنتبه الفتاة الصغيرة الى ما حدث .

ومضى من فوره الى زقاق الصاغة على أمل أن يبيع الحلقة قبل أن يتنبه أصحابها الى فقدها ، ولكن القدر كان مخبوءا له على كثب منه في شخص (بصاص) سرى لاحظ ارتباكه فقبض عليه ، فتلعثم ، فقاده الى جاويش تركي في أقرب نقطة حيث استجوب فاعترف بسذاجه اللص البدائي .

❊❊❊❊❊

قدمنا في فصل سابق أن شؤون الأمن في مكة كانت مسئولة في بعض نواحيها من أمير مكة على رأس حرسه و (بواردیته) ان كنا نذكر البواردية ـ وهم نوع من الحرس كان يتكلف باحضار الخصوم الى بيت الشريف في مجلسه أو قائم مقامه في دهليز البيت ـ كما كانت شؤون الأمن في نواحي أخرى أهم مسؤولة من والي مكة يمثله فيها قومسير للبوليس على رأس ثلة من الجند (الجندرمة) . وكانت أعمال الجندرمة في البوليس شبيهة الى حدما بأعمال (البواردية) في بيت الشريف .

وكان يتبع البوليس (بصاصون) مختصون بالرقابة السرية يتعقبون المجرمين في أثواب مدنية ، ومع هذا فقد كانوا غير مجهولين بأشخاصهم وأسمائهم من المتوطنين في مكة .. أما معتادو الاجرام فكانوا وثيقي الصلة بهم وكانت اشارة واحدة من أحدهم الى البصاص كافية لإفساح الطريق أمام اجرامهم .. لهذا كانت أعمال المجرم العاتي لا يشوبها خطر الا اذا اختلف مع البصاص أو أساء عملته .

وكان فتانا علوة أصغر من أن يحذق شيئا من هذه الأسرار ، لهذا كان لقمة سائغة للبصاص عند أول خطوة أراد أن يخطوها في جد .

لم يشفع له سنه لدى (البصاص) كما لم تنفعه سذاجته أمام ضابط البوليس ، وأمام القومسير فيما بعد ، وليس هذا خطأ حكام الترك وحدهم .. لأن دراسة النفوس الملتوية فكرة لم يتناولها نظام خاص في كثير من شعوب الأرض .

وأعتقد أن الحياة سيدميها السير طويلا قبل أن تنتهي الى اليوم الذي تشعر فيه بحاجتها الى هدم أكثر آرائها في علاقة المجتمع بالمجرمين .. فليس الإجرام فيما أعتقد أكثر من مرض له أسبابه السيكولوجية وأعراضه التي تتنوع بتنويع جراثيمه الخاصة .. فإذا استطاع العلم في أحد الأيام تشخيص حقائق المرض ، واستطاع أن يتتبع أنواعه التي لا يحدها حصر ، وأن يتعقب الجرثومة

المتأصلة في حقيقة كل نوع على حِده .. فسوف لا يعجز عن علاجه بغير الطريقة التي اعتادتها الحياة الى اليوم .. وعندئذ سيبدو مقدار تعسفنا في امتهان المجرمين وتسرع عنافى الاحكام على أعمالهم قبل التثبت من دوافعهم الى الاجرام .. ورحم الله خليفتنا الفاروق الذي أبى أن يعاقب السرقة في سنى المجاعة ، فقد كان أغزر دراسة لأركان الجريمة من ملايين الحكام الذين افترضوا خصومتهم للمجرمين دون أن يكلفوا أنفسهم النظر في دوافعها الحقيقية .

وفتانا علوة أحد ضحايا هذا الافتراض الظالم .. فقد نشأ في بيت عطل أحاسيسه بما يفعل ، وترك عقله الصغير يحدد علاقته بالمجتمع في اطار ضيق أغراه بالختل ، وعلمه الاختلاس ودربه عليه دون أن يشعر حتى ألفه .. والانسان عبد لما ألف .. فإذا ساقه سوء الطالع الى طريق (البصاص) ، ثم الى موقف الحاكم فهل نأمل من (البصاص) أن يشفق على ضعفه ؟ أو من الحاكم أن يكلف نفسه دراسة الدوافع الحقيقية الى الاجرام ؟

ان في هذا من التكلف في نظر الحياة اليوم مالا يتسع له مدى عاقل .. أما السبيل الطبيعي المتفق عليه فليس سوى الامتهان الذي يليق بأمثال هذا البائس

اذا كان بعض الموهوبين قد هداهم العلم الى حقائق كبيرة درسوها في نفسيات المجرمين .. فأولئك قلة في أطراف الأرض لم تعترف حكوماتهم بآرائهم الى اليوم ، في الغالب الأعم ، اعترافا رسميا يؤهل درجها كقواعد في أنظمة الحكم ، والا لهدمت تلك الحكومات جميع سجونها ، وأقامت على انقاضها مستشفيات تعالج فيها أعتى المجرمين ، كما تعالج الأمراض المستعصية ، وتعدلهم بفنونها حياة تؤهلهم للاستقامة والشرف .

❁❁❁❁

سيق علوة الى سجن القلعة على كتف الجبل المعروف في أجياد ، فلم يتألم احساسه لما ناله من امتهان وصفع ، وشعر في قرارة نفسه أنه اذا خاب اليوم في صفقة مع الحياة ، فلا يجب أن يجزع لقسوتها .. لأنه سيقسو اذا ظفر بعد اليوم دون أن يعتد بآلام غيره اذا تألم .

سيق الى السجن فاستقبل فيه طوائف من البشر كأنها النحل تطن بين خلاياه .. كانت كل طائفة تتجانس في مستواها ، تحتل غرفة من عشرات الغرف المتزاحمة حول ردهة السجن ، فمضى يرود الخلايا غرفة بعد أخرى ، لعله يأنس الى ظل يقيه الشمس ، حتى انتهى الى سقيفة نائية مهجورة في طرف ناء من السجن .. فأوى اليها في جسم متهالك ولم يبرح مكانه منها حتى اقترب منه أحد المسجونين :

- ياواد انت قاعد هنا لحالك ليه ؟
- والله ياعمي أنا محبوس .
- طيب موكلنا محبوسين زيك .. بس هادي وصلة عفنة شوية .. ما أحد يقعد فيها .. شوف الغرف التانية ادخل أي واحدة منها ، واجلس
- ما أعرف أحد يا عمي .
- انت من أهل فين ؟
- أنا من أهل مكة .
- ومتى حبسوك ؟
- دوبهم .
- وليش حبسوك ؟
- كدبوا على وقالوا سرقت من الولد الصغير ريال مغربي كان لابسه في حلقه .
- وانت ما سرقته ؟
- لا والله يا عمي .
- ومين أهلك ؟

- ما عندي أهل .
- كيف يعني ، طلعت مزروع في الأرض ؟
- واحدة هناك ربتني .. حرمة في البيت ولا عندها رجال .. ولا تدرى اني انحبست .
- طيب ما أحد راح قال لها ؟
- لا والله .
- طيب وانت أكلت ولا لسع ؟
- ما أكلت .
- وعندك فلوس ؟
- عندي واحد مجيدى وعشرة قروش .
- خليهم معاك وتعالى كل معنا لقمتين .

ومضى به السجين الى الغرفة التي تحتلها طائفة . وكانت تضم نحو ثمانية أشخاص ظنهم لأول وهلة من رؤساء السجن ، لما رأى من نظافة ثيابهم ووجاهة الفرش المبسوط في غرفتهم .. كان أحدهم يتكىء على حشيات نظيفة من القطن .. وقد عقد الدخان سحابا كثيفا من سيجارته في جو الغرفة ، وجلس اثنان في ركن آخر من الغرفة على وسائد لينة يلعبون (الضومنة) .. بينما تفرق غيرهما في أركان أخرى من الغرفة يتبادلون الحديث أو يقتلون الوقت في لعبة (الانن) .

كان نظام السجن في هذا العهد من أرفق أنظمة السجون في العالم ، اذا قيست تقاليده بتقاليد غيره .. فقد كانوا يبيحون للسجين أن يرتدي ملابسه الخاصة ، وأن يستحضر لأكله ما شاء من طعام ، ولنومه ما شاء من فرش .. ولما كان السجن في العادة لا يخلو سجناؤه من طبقات تختلف باختلاف مراكزها وغناها ، فقد كانت كل طائفة تجتمع الى طائفتها في غرفة خاصة لتشترك فيما تستحضره فيه من طعام أو شراب .. فأصحاب الغني متميزون بغناهم ، كما هو الحال في المتوسطين والفقراء .

ومن العادات المتبعة في السجن : أن أغنياء المسجونين تصلهم الأطعمة من بيوتهم في كميات وافرة ، تفيض على أمثالهم عدة مرات ، فكانوا يطعمون بعضها ، ويوزعون أكثرها على المعتقلين في غرفهم الأخرى .. لأن السجن لا ينفق على هؤلاء الفقراء الا في القليل النادر .

وكان السجناء الأغنياء لا يستغنون عن خدمات زملائهم من الفقراء في سائر أغراضهم في السجن .. وبذلك يجد البؤساء موردا طيبا يهون عليهم لاواء السجن ، ويحمل عنهم مصائبه !!

وقد وجد علوة في الرجل السجين وأفراد طائفته ما أغراه بالبقاء عندهم رهن خدمتهم !

واختلط علوة بكثير من نزلاء السجن في الأسبوع الأول لدخوله السجن ، وكان بحكم صغر سنه ، يستطيع التنقل بين سائر الغرف دون حرج من أصحابها .. فقد كانوا يكلفونه بكثير من خدماتهم داخل السجن ، فيمضي فيما يكلفونه بنشاط لم يعهده فيما كانت تكلفه به مربيته من قبل ؛ ولعل ذلك كان نتيجة لعدم شعوره بروح الكراهية التي كان يشعرها في بيت مربيته ، أو لأنه أدرك أن ما يجمعه بزملائه في السجن ، أقرب كثيراً الى معاني التفاهم من جامعته بغيرهم .

وزاد اختلاطه بهم بمرور الأيام ، فكان يتسمع الى قصصهم ، وينصت في عناية الى رواية البطولة في أحاديثهم .. هذا فذ في سطوه ، وذاك حكيم في نشله ، وأولئك من المعدودين في فن العبث بسلطان الدولة .. صور لا يحصيها العدد ، تمثل في مجموعها ألوانا من حياة الاجرام مطبوعة بطابع الفروسية القديمة .

استمع علوة الى عشرات القصص وعشراتها من هذا النوع فتأثرت نفسيته الضعيفة بروعة ما فيها من بطولة زائفة ، وتعشق أمجادها الكاذبة ، وتمنى لو أتاحت له الأيام أن يقفز الى صفوف المعدودين في طلائع الاجرام .

وعرف في السجن مجرما من عتاة اللصوص كانوا يدعونه (أمين جاوى) وكانوا يكبرون فيه سطوته ، ويتحدثون عن نوادره في الجرأة والبسالة .. فأعجب بمميزاته كما تحدثوا عنها ، وهاله فيه القوام الناهض ، والنظرة الثابتة ، والمحيا الناطق بالقوة والتحدى .

وبدا الأمين جاوى أن الفتى علوة أحد المعجبين به ، فحنا عليه حنو الكبار ، وكان يربت على كتفه مشجعاً كلما سمعه يروي حكايات مقته على مربيته ، أو ينعى قسوة الأقوياء على الضعفاء في الحياة .

وتوثقت الصلة بين فتانا وأستاذه .. وكان الأستاذ نابغة في فنون النشل ، فلم يبخل على تلميذه بدروس طويلة تعلم فيها أفانين النشل ، وحذق ألاعيبها وكثيراً من حيلها .

*****

كانت قهوة العم سالم تحتل بناء واسعاً في أعالي خريق المعلاة ، بجوار مسجد الجن قبل أن يمتد العمران بشكله الحاضر الى ذلك الجزء ، وكان يدير أعمال القهوة فيها كهل من أمهر أصحاب المقاهي في مكة ، وأكثرهم عناية بالرواد ، وأشدهم حزما على خدمه ويقظة لجميع وسائل النظافة في مقهاه .

كان روادها في أمسيات . أيام القيظ الشديد يتمتعون بمائه البارد المعطر ، قبل انشاء معامل الثلج في مكة .. فقد كان يصف قلال الماء ـ ونسميها رباعي ـ بالمئات في مكان استراتيجي من مقهاه يتعرض لهبوب الريح ، فلا يكاد رائده يعتل كرسيه بين (المراكيز) المصفوفة ، حتى يصيح الصائح (ربعى يا وليد) في

صوت مجلجل لا ينتهي من آخر مقطع فيه ، حتى يكون (الربعى) قد وصل الى (الطرابيزة) ، وبدأ الظامئون يطفئون حرارة القيظ من مائه البارد المعطر .

ويتوالى مجيء الطلبات في سياق مطرد ، لا أثر فيه للتلكؤ ، لأن صاحب المقهى على كثب من عماله فيها يتبع حركاتهم دون أن تطرف له عين .

وكانت مساحة مقهاه من أوسع المساحات في مقاهي مكة ، وأنقاها هواء .. وكان لمقهاه سطح مشرف يعد الى جانبه الساحة الواسعة حيث يتوسد النائمون كراسي نظيفة يجدون فيها متنفسا مما ضاقوا به في بيوتهم ، كما يجدون وسائد وأغطية لا تقل في نظافتها عن سائر موجودات المقهى .

وكان خدمه يحرسون نوام المقهى في ساعات الليل بالتناوب ، دون أن يجرأ أحدهم على التراخي ، أو يخل بواجبات ما وكل اليه من عمل .

وفي احدي الليالي ، وبينما كان زبائن المقهى قد توسدوا كراسيهم الطويلة ، واستغرقوا في سباتهم الا نفر قليل في أحد الأطراف البعيدة من المقهى كانوا يهزجون ببعض أغانيهم البلدية في أصوات هادئة ، اذا ضجة ترتفع في طرف آخر من المقهى وصوت صارخ يتهدج - (حرامي .. حرامي .. امسكوا الحرامي) ، فاستيقظ أكثر النوام على صوت الصارخ ، وجرى بعضهم الى مصدر الصوت ، وتبعهم الحرس فتقاطروا مسرعين للنجدة .. ثم علا الصخب ، وكثرت الضجة ، وجرى بعض خدم المقهى يحملون فوانيسهم الى مكان الضجة ، فرأى المجتمعون على ضوئها شبحا هزيلا يتسلل بين الكراسي ، ثم يعدو في خفة القط الى حائط بجوار المقهى يطل على قبور المعلاة فيتسلقه ثم ينحدر الى القبور فيضيع أثره بينها .

وتحسس الحرس ، ورجال من رواد المقهى ، وبعض حملة الفوانيس فتتبعوا أثره وراء السور حيث رأوه ، ينحدر ، فلم يجدوا له أثرا .. وفتشوا بعض القبور التي وجدوها مفتوحة فضاعت جهودهم هباء .

وعندما عادوا الى المقهى علموا أن الشبح استطاع أن ينشل كيس النقود من بين مخدات النائم وكان مبلغ من (المجيديات) وبعض القطع الفضية (الاستانبولي) .

وعلم صاحب المقهى بما حدث في الصباح ، فشدد عقوبته على الحرس ، وفصل بعضهم ، وأضاف غيرهم بعد أن أوصاهم بالحرص . الا أن جميع الترتيبات ضاعت هباء ، لأن شبح الليلة البارحة عاد مرة أخرى الى الظهور ، واستطاع أن ينشل مالا آخر ، ثم يذوب وراء سور القبور .

وعلم صاحب المقهى بالأمر ، فاشتد حنقه على اللص الساخر ، وحلف ألا يغادر مقهاه من ليلته حتى يكشف الأمر ، ويعرف سر ذوبانه بين القبور .

ورأى أن يبدأ فحصه في ضوء النهار .. فاكتشف بين القبور المهجورة قبرأ يتصل قاعه بسرداب صغير سدت فوهته بحجر ضخم ، وأزاح الحجر ، فرأى السرداب لا يزيد عن حفرة تتسع لجلوس رجل ضئيل الحجم .. فأدرك أن اللص يتخذ مخباه عندما يذوب بين القبور في هذه الحفرة التي يغطى فوهتها الحجر ..

وكلما تعقبه الساهرون ، ثم افتقدوا أثره بين القبور اكتفوا بتفتيش القبور دون أن يثير انتباههم حجر متروك في قاع احداها . لأن قياع القبور لا تخلو مما تحدر اليها من الأحجار المحيطة ، ولأن أضواء الفوانيس لا تستطيع الكشف عما خفى وراء مثل ذلك الحجر .

وبذلك استطاع صاحب المقهى ، عندما استأنف اللص عودته من ليلته الجهيدة أن يتر صده بجانب الحفرة ، وأن يضع يده عليه في يسر وسهولة .

وسيق اللص في زفة صاخبة الى نقطة البوليس في سوق المعلاة .. وبدأ يستقبل اللطمات من كف المفوض التركي في النقطة .

ولو استطاع القارئ أن يهتك الاستار عن حقيقة اللص ، لأدرك أنه صاحبنا علوة ، وعرف أنه لم يكمل مدة السجن المقررة ، حتى استطاع أن يحذق كثيرا من الحيل التي تعلمها من أستاذه في السجن (أمين جاوى) ، وأنه لم يغادر بابه حتى كان قد وطد عزمه على العمل لنفسه ، ولنفسه فقط ، بين مجتمع لا يظفر فيه الا الغالب .

كان أستاذه يرى في الحياة آراء لها خطورتها .. كان يعتقد أن اللصوصية بمعناها الصحيح لا تقتصر على جماعة محدودة سماهم الناس لصوصا ، بل هي حالة متأصلة في جميع الطبقات دون استثناء الا في القليل الشاذ .. فالعميل المحتال ، والتاجر المستغل ، والمتمول المخادع ، والوجيه المنتفع بوجاهته بطرق لا تقرها النزاهة ، والقوى المستفيد من قوته في قضايا يعلم زيفها ، ومالك الأرض أو معمرها الذي يضيف ببعض حججه الكاذبة قيراطاً يعرف أنه لا يملكه .. كل هؤلاء ، وأنواع من أمثالهم ، وأكثر خطراً منهم على الانسانية ، يجب - في رأيه - أن يضافوا الى اللصوص ، بل يدرجوا في أوائل قوائمهم .. ولكن العرف التقليدي تغاضى عن حقائقهم في كبرياء وتضليل ، بل مضى الى أبعد من هذا فكلل جهود الممتازين منهم بأكاليل من الغار ، وسمى بعضهم أبطالا ، وأهداهم من النعوت ما يغرى !! بينما اضطهد غيرهم ، وألصق بأوصافهم ما جردهم من معاني المروءة والشرف .

فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

وجدت هذه الأفكار الخطيرة سبيلها سهلا الى نفسية علوة الناقمة على أوضاع الحياة فتركت أثرها فيه، وأعدته للشر، أكثر مما أعدته مربيته في تربيتها المنحرفة.. فلم يغادر سجنه حتى كان قد وطد عزمه على ما وطد.

وقادته رجله الى السجن بجرمه الجديد، ولم يمض على مغادرته أسبوع، فاستقبله في تبلد وبرود.. ولعله سر بلقاء أستاذه في الغرفة التي تركه بها.

❊❊❊❊

وقبل أن يمضي يومان على دخوله السجن، أسر أستاذه اليه أنه بالاشتراك مع بعض الزملاء قد قرروا الهرب وأنهم دبروا لذلك خطة محكمة لا ينقصها الا التنفيذ العاجل، وأن في استطاعته اذا أراد الاشتراك، أن يعد نفسه للتنفيذ في ساعة متأخرة من الليلة الآتية. فسر علوة لعناية أستاذه به وشاركهم فيما دبروا، واستطاعوا معا بفضل الخطة المحكمة التي نظموها أن يجدوا أنفسهم طلقاء قبل أن يلمع الفجر.. الا أن سوء طالع علوة قاده من حيث لا يدري الى (خريق المعلاة) حيث لمحه الجندي الذي صحبه الى السجن في جريمته الأخيرة. ولما أراد أن يستوقفه ليتحقق أمره أسرع علوة يطلق العنان لساقيه، ولكن الجندي - وكان من العدائين قبل الجندية - استطاع اللحاق به قبل أن يفلت.

وسيق مرة أخرى الى السجن بعد أن ضوعفت عقوبة سجنه، وأدرج اسمه من جديد في (قوائم) العتاة من أصحاب الاجرام.

وكانت وطأة السجن عليه في هذه المرة أشد مما عرفها من قبل.. فقد آلمه نجاح رفقته دونه، كما آلمه فقد أستاذه الذي كان يأنس اليه، ويجد في صحبته ما

يخفف عنه وحشة السجن .

ولم يطل أمله كثيراً فقد جمعته الصدف بسجين من طلبة العلم كان كثير القراءة كثير الصلاة ، فاستهواه ترتيله الجميل لآيات القرآن ، وخشوعه الطويل على مصلاه كلما حان وقت الصلاة . فآثره بتقديره ، وتوافر على خدمته .. وعندما علم أن جزيرة الشيخ في السجن لا تعدو تهمة كيدية ، شعر نحوه بعاطفة من الميل لم يشعر بها نحو غيره من قبل .

وأحس الشيخ بميل علوة اليه فبادله حبا بحب ، ثم سمع قصصا من حياته فعرف موطن العلة في تربيته وأدرك بواعث الحقد والكراهة التي تأصلت في أعماق نفسه .. فأغرته بالجريمة ، وعلمته من ألوان الشر ما حسبه يفي بثأره في الحياة .. فوطن عزمه في سره على تتبع موطن الداء من نفس الفتى ، وأن يحتال حتى يستأصل الجرثومة من موقعها ، ويحل ما تعقد حولها من طحالب .

لو يواجه الشيخ فتاه بما كان من آثامه في الحياة ، أو يحاول تسفيه وتشنيع خطاياه .. وايراد ما يناسب المقام من صيغ الوعاظ ليقيم الدليل على فحش ما جنى خشية أن يستثير أنانيته وعناده .. بل تناسى جميع جرائره وآثامه ، وتحبب اليه حتى ملك عليه عواطفه ليستطيع أن يوجه قياده في أناة ولين من حيث لا يدري .

حتى اذا تم له ذلك عمد الى شرح نواحي الخير والشر في الحياة .. في أسلوب لا يمت بصلة الى ما اقترفه علوة فيها . ليكون البحث عاما لا علاقة له به من قريب أو بعيد ، وكان يدلل فيما يشرح بما يحضره من أقاصيص أخاذة أو فكاهات مسرية ، فكان الفتى يصغي بكل جوارحه الى حديثه الطريف ، ويستحث

ليواصل ما قطع منه ، ويستعذب روح الفكاهة فيما يقص عليه من حكايات .

وكان يزيد في عجب علوة مدى الفرق بين معارفه عن حقائق الحياة التي استقاها من بيئته الخاصة ، وبين ما تكشف له من آفاق جديدة فيما يحدثه الشيخ فكان الشيخ يدرك وجه تعجبه ، ويتطوع بالتفسير .

(أنت يا علوة ما شفت الدنيا الا من جهتها السوداء .. قست عليك اللي ربتك ، وقسى عليك اللي اشتغلت معاهم في الحجر والطين ، وما وجدت واحد في طريقك من أهل الخير ، فظننت الدنيا كلها كدا أهل شر ، لكنك لو واجهت الدنيا من جهة ثانية كان شفت أنه فيها كمان بياض يفتح النفس ، وشفت ناس من أهل الخير تتعب تقول من أهل الخير) .

وكان الشيخ يشفع نظرياته في الموضوع بقصص لأهل الكرامة والنبل ومحبى الخير في الحياة ، فيترك علوة يحس بحقيقة جهله ، ويزداد تعجبه من تصوراته الخاطئة التي كان يرسمها لذهنه عن حياة الناس .. وبذلك تحللت العقدة في أعماق علوة وبدأت آفاقه تتسع لنظريات الشيخ .

واستمر الشيخ في ترويض علوة بأسلوبه الحكيم الهادي ، حتى تعشق علوة بمرور الأيام مبادئ الشيخ وتمنى لو أتيح له الانطلاق ليصافح الحياة من جوانبها البيضاء ، ويبحث عن وجه الخير فيها .

❊❊❊❊❊

وعندما انتهت أيام سجنه وأسلموه الى الباب .. تنفس الهواء الطلق ملء رئتيه ، ومضى في خطوات ثابتة يتلمس الحياة من جانبها الأبيض .

كان قد عول على طرق أبواب العمل الشريف ، فأخذ سمته الى طباخ كان يعرف دكانه في القشاشية بجوار البريد القديم ، عسى أن يجد لديه عملا يقيم أود حياته الجديدة .. لكن الطباخ ما كاد يسمع طلبه حتى عرف فيه (شقياً) قديما ، فأشاح بوجهه دون أن يجيب بحرف واحد .

ترك دكان الطباخ وأخذ طريقه في انكسار الى مقلاة للحمص كانت على خطوات منه ، فلم يكد يرحب به صاحب المقلاة ، حتى تذكر أنه عرف الشخص قبل اليوم ، فاستدرك الأمر بطرده من الدكان .

وخيم الليل على علوة وهو في طريقه يذرع الشوارع والدروب ، ويتسكع بين الدكاكين عله يجد من يقبله في عمل ، أو يسأله لشغل ، حتى دب التعب الى أعصابه ، وأنهكه الجوع .

وكان يمسك من دنياه (مجيديا واحدا) استبقاه في جيبه من النقود القليلة التي كان ينفحه بها بعض أصحاب الخير في السجن فاشترى منه بعض العيش والتمر ، وعول أن يواصل سيره الى أحد المقاهي في الخريق ليأكل مما اشترى وينام على أحد أسرة المقهى الى أن يوافيه الصبح .

الا أن صاحب المقهى ما كاد يلمحه حتى تذكر قضيته ليلة حادث السرقة التي اختبأ بعدها في القبر المهجور ، فأبت غيرته لزبائنه أن يقبل نومه عنده ، فطرده في قسوة واضحة ، وفعل مثله صاحب مقهى آخر ، وآخر ، حتى أبت جميع المقاهي في الخريق قبوله لديها ، لأن أصحابها كانوا قد علموا جميعهم في ليلة الحادث بما جرى قرب مقاهيهم من مكان الحادث .

فمضى به الدرب بأسوا ما يمضي فيه انسان كسير القلب مكدود ، ولقد ساورته

أفكاره القديمة عن آرائه القاتمة في الحياة ؛ ولكنه صمد ، وأبى الا أن يواصل الجهد حتى يصافح الحياة المشرقة التي بشره الشيخ بحقائقها .

وعادت به قدماه الى حيث أتى ، فلما انتهى الى القشاشية ، دلج الى المسجد الحرام ، فأدى فريضته كما تعلمها من الشيخ ، ثم بسط طعامه فأكل ما استطاع مكدود مثله أن يأكل . ثم افترش (احرامه) حيث كان ، وأراد أن يهجع ، ولكن الشرطي المكلف ما كاد يراه مضطجعا . حتى أمره بالجلوس ، أو مغادرة المسجد ، لأن النوم ممنوع فيه .

وحاول الجلوس فأبى النوم ذلك عليه . فغادر المسجد الى القشاشية مرة أخرى ، ثم دلج يصعد في الأزقة الضيقة الى جبل أبي قبيس .

ولم يصل الى قمته حتى كان التعب قد أرهق مفاصله فأوى الى صخرة في القمة ، وافترش (احرامه) لينام فأقض مضجعه نباح عال ، ونظر فاذا عدد لا يحصى من الكلاب تطارد ذئبا بين مخارف الجبل ، وحقق نظره فاذا الذئب يختفي بين شغاف الصخور القريبة منه ، بعد أن ضلت الكلاب سبيلها اليه ، ووقفت على عدوة مما اختفى توالى النباح في أصوات مزعجة .

وجفاه النوم ، واشتد به القلق ، وأحس أنه على كثب من خطر الذئب الكامن وراء الصخور . فابتعد عن المكان ما أمكنته قدماه المرهقة ، وحاول النوم من جديد . ولكن القلق كان قد ذاد الكرى عن أجفانه المثقلة ، وسمع أصوات الكلاب تدنو نحوه ، فأيقن أن الذئب قد غادر مخبأه الى حيث يطارده الكلاب ، فوجف قلبه خوفا ، وزاد اضطرابه .

وكانت ليلة ليلاء قاسى من أهوالها مالا يحتمل ، وعز عليه أن يظفر فيها بهدوء أو راحة .

❀❀❀❀

واستأنف سعيه من الغداة بحثا وراء الرزق . فاستطاع بعد عناء شاق أن يجد عملا في احدى مصانع النورة ، وكان ترتيبه في المصنع سياقة الحمير الموثقة بأكياس النورة من مصنعها وراء جبال أبي لهب الى مركز بيعها في حارة الباب من مكة ، فصادف مالا يحتمل من وصف الجرى ، والانغماس في حفر النورة واستنشاق ذراتها الحادة على من لم يألف العمل فيها . ولكنه كان قد اعتزم الثبات ، وآلى على نفسه أن يروضها في حياته الجديدة .

واستمر يتخذ مأواه كل ليلة من مكانه المختار في قمة أبي قبيس ، وبعد أن قطع الكلاب دابر الذئب الذي يرتاد المخارف فيه ، فكان ينعم بمرقده الخشن يؤرقه نباح الكلاب العابثة في آفاق الجبل ؛ ثم لا يلبث أن يغزوه النعاس .

وظل على أمره في ذلك أياما .. استطاع في أثنائها أن يشبع حاجته الى الطعام ، ولكنه توجس شرا قبل أن يتم أسبوعه الأول ، لأنه لمح رجلا كان يعرفه من رواد مقاهى الخريق يطيل النظر اليه وهو يفرغ وسقة من النورة في دكان البيع ، ثم رآه يتجه الى المشرف على البيع في الدكان ، ويسر اليه في صوت خافت كلاما أحس أنه يعنيه ، فوجف فؤاده واضطرب .

وصور له خياله أن ماضيه بات مكشوفا منذ الساعة لأعمامه في العمل فتوجس الشر ، وبات ليلته في أسوإ ما يبيت حزين مهموم ، كان يقول في نفسه : أمن العدل أن أعاقب بجرائر ساقتني اليها ظروف كنت أجهل مقاومتها ؟ واذا كان الله قد شمل التائبين بعفوه ، فما بال عباده يناصبونهم العداء ، ويغلقون أمامهم أبواب الحياة ؟

وتلقى في صباح اليوم التالي أمر رئيسه بترك العمل ، ولم يتورع الرئيس أن يضيف الى أوامر الطرد بعض النصائح : - يا واد مادام انت حرامي ورد حبوس جي تمتحنا بنفسك ليه ؟ .. روح شوف عينك زي اللهبة من أول يوم جيت عندنا .. هيا روح أقلب وجهك .

وصعد علوة زفرة أودعها كل آلامه وقال :

(يا عمي أنا كنت حرامي .. ولكن تبت ، وعاهدت ربي ما عاد أسرق أحد .. والله يا عمي أنا فرحت بالشغل اللي لقيته عندك ، وقالي عقلي يا واد ما دام الحالة ماشيه كده تقدر تنسى كل شيء ، وتبتدي تمشي مستقيم في الدرب الجديد زي الناس المهديين .

ولكن العم صاحب المصنع ، أبى أن يقتنع بأمثال هذه الكلمات ، ورأى من الخير لمصنعه أن يحتاط بابعاد من توجس فيه الشبهة ، ونسى في مثل هذا الحال أن واجبه كانسان أن يسدى الى مثل هذا البائس فرصة جديدة الى الحياة البريئة التي يتوق اليها .. وتلك حالنا في الحياة ، كانت ولا تزال تعد الآثمين ، والخاطئين ، والجاهلين لأسوأ معاني الاجرام .

لم يتكلف صاحبنا أمام هذه التوسلات أكثر من نظرة يشيع فيها الازدراء والاحتقار .

- تروح يا واد .. والا أزهم لك العسكري ؟

وبذلك راح علوة ولم يرح .. لأن أقدامه ساقته الى دروب طويلة كان لا يعرف وجه الطريق فيها ؛ أما روحه فكان لا يدري أتركها على كثب من مهابط المصنع ،

أم اصطحبها معه بين منعرجات الدروب الضالة .. ذلك لأن شعوره فقد الفهم والحساسية .

وطوى يومه وليلته لأن جيبه لا يحوي ثمن رغيف يشبعه ، ثم أرشد الى مكان التكية القديمة في المسعى فزاحم حتى نال رغيفا وشيئا من (الشوربة) فسد جوعته ، ثم طوى يومه وليلته حتى ظفر بمثلها في صباح جديد ، وظل أمره على ذلك أياما كان لا يتبلغ فيها الا وجبة واحدة ينالها كل صباح من مبنى التكية .

وراودته نفسه بسؤال الناس ولكنه كان يزجرها ، ويحسن الصبر لها لتكفر عن أخطائها فيما مضى .. تلك الأخطاء التي كان يشعر في قرارة نفسه أنه لا رأي له فيها .

وعول على أن يبحث عن معلمه القديم (أبو فروة) لعله أن يقبل ضمه الى عماله في البناء ولكنه ما كاد يسأل عنه حتى علم أنه فارق الحياة . وكاد أن يسوقه الحديث الى السؤال عن زوجه الصالحة ، وابنته الجميلة .. ولكنه آثر أن لا ينكأ جروحاً قديمة بذكريات كهذه وان يبعد ما استطاع عما يشتم فيه روائح الماضي .

ووفق له عمل في ذات يوم بين عمال الحجر ، ولكن العمال ما فتئوا أن عرفوه فوشوا به .. فلم يتركه صاحب العمل يتم يومه .. فاستأنف البحث عن غيره ، وغيره . حتى اشتغل عند سمان ، ونجار ، وحداد في أيام غير متعاقبة . فلم يفلح في الدوام عند أحد .. لأن ماضيه الكريه كان يأبى ألا أن يتعقبه حيث اتجه .

واشتغل خادما في أحد البيوت فطرده صاحب البيت بعد ساعات من التحاقه عنده ، وصادفه تاجر فائتمنه على شيء من بضاعته يتجول بها ثم علم بعد يومين بأمر ماضيه فلم يقبل بقاءه لديه .. فظل على أمره أياما طويلة .. ولكن عزمه مع هذا كان قد توطن على الجلد وآلى ألا ينحرف مهما بلغت به المعاناة .

❁❁❁❁❁❁❁

ومضى به الثبات الى غاية طويلة سمع في نهايتها انسانا يحدثه عن مدينة جدة ، وسهولة الكسب فيها فلم يفكر طويلا فيما سمع ، بل اصطحب أول جمال رآه يغادر جرول الى طريق جدة ، وساير جماله ماشياً على قدميه بعد أن تزود ببعض التمر والعيش .

وهداه تفكيره في جدة الى الاستغناء عن (احرامه) وثوبه والاكتفاء (بسرواله) فلم يتوان فيما فكر .. بل سلمها الى أول مشتر نقده فيهما ثلاثة (مجيديات) .

وقصد من توه الى حلقة الخضار فاشترى بضاعة من الكراث بجميع ما يملك ثم انتحى الى ناحية من الطريق فقسمها الى حزم ، وانطلق ينادي في الصباح الباكر معلنا عن بضاعته بصوت عارم أودعه كل آماله في الحياة .

وأحصى نقوده في نهاية اليوم فوجد أن مجيدياته أوشكت أن تتضاعف ، فشجعه هذا على استئناف العمل ، واضافة شيء من الليمون الى بضاعة الكراث .
ودام عمله في الكراث والليمون أياما وجد في نهايتها أن نقوده تتسع الى اضافة نوع أو نوعين ، فلم يتلكأ في المزيد ، ولم يبخل بجهده فيه .

ووجد مع الأيام زاوية صغيرة تنحرف في رأس زقاق يطل على أحد الشوارع الرئيسية فاحتلها ببضاعته ، واستطاع أن يعرض بضاعته فيها على أنظار المارة ، وأن يستغنى عن التجول ، فدر عليه ذلك اخلاف الرزق ، وشهد الناس من طيبته وسماحته ما حبب اليهم معاملته فكانوا يفضلون قضاء حاجاتهم منه ، وجربه أصحاب البيوت القريبة فثبت عندهم حدبه على الصغار الذين يرسلونهم لقضاء ما يحتاجون منه ، وبرهم بأصنافه الطيبة ، وتعففه عن الغش والمغالطة . فساروا بسمعته الى كل من يعرفون حتى بعد صيته ، واشتهر في حيه الواسع بمعاملته الصادقة .

وتوسعت أعماله بعد عام قضاه في تجارته الجديدة ، واستطاع أن يضيف الى أصنافه أصنافا حتى تعددت الأنواع في دكانه ، وتفاقمت أرباحه .

وطالت اقامته في جدة .. أما أصحاب السوابق من الآثمين والمجرمين فكانوا يجدون في بيته الواسع الذي بناه في ضاحية البغدادية مأوى يلوذون به كلما أعوجتهم الحاجة أو مسهم الجوع .

وكان أصحاب البيوت المجاورة له في البغدادية يرون عنايته بالأشرار ولا ينكرون ما يرون تقديسا لما شاع عندهم من خلاله العالية ، وبره الذي كان لا يقصره على عالم من الناس دون آخر !!

وعندما اتسع حاله تذكر موطنه الأول في مكة ، ونازعه اليه الحنين فاقتنى في بيته دابة خصصها لرحلاته الى مكة كلما استفزه الشوق اليها .

وكان لا يمكث في مكة طويلا لأنه كان يتحاشى الوجوه القديمة التي تعرف ماضيه ، ويحاول ألا يظهر أمام أحد من معارفه هربا من الفضول

وتنازعه الشوق في احدى روحاته الى مكة الى العائلة القديمة التي كان يرسله عمه أبو فروة لخدمتها في البيت ، وتذكر عطف سيدة البيت ، كما تذكر عيون ابنتها النجلاوين فساقته قدماه الى دارهما في زقاق الجبل وراء الصفا .

وقابلته الفتاة بسرور واضح ، وقادته الى أمها المريضة على سريرها فعلم منها أنها افتقرا بعد موت عائلهما أبي فروة ، وأنهما باتا يخشيان أن يفرق الموت بينهما قبل أن تبني الفتاة على شاب يضمن لهما الهناء والسعد .

وتراءت له في الحال فكرة خطوبة الفتاة فلم يتردد كعادته في حزم الأمور ، وتقدم الى الأم في شأن ذلك بعد أن ساق اليها ما جهلت من فصول حياته ، وأنبأها بنتائج الظفر التي بلغها ، فوافقت الأم ولم تعارض الفتاة فانتقل بهما الى بيته في جدة وعاش سعيدا معهما

❋❋❋❋

ووقف على دكانه في أحد الأيام زبون كانت أسماله البالية تنم عن فقر مدقع ، فلما حقق علوة فيه النظر ، عرف في أسماله زميلا قديما من زملاء السجن ، فخالجته الشفقة في شأنه ، وأبت مروءته أن يتقاضى منه قيمة ما اشترى .. فكان لشفقته رد فعل كلفه ثمنا غاليا في الحياة .

وأطال الفقير نظره الى علوة في دهشة المتعجب ، وحاول أن يعرف في ملامحه شخصية مرت به قبل اليوم ، فلم تسعفه الذاكرة . ولكنه أيقن أنه يعرف هذه الملامح ، وتمنى الى علوة أن يساعده فيما نسى . فتخابث عليه وأبى أن يكشف عن شخصيته لزميله القديم حياء من اذاعة سر لا يشرفه في محيطه الجديد .

وتردد الفقير على دكان علوة استدرارا لعطفه . فكان علوة لا يبخل بعطاياه الطيبة . بصورة أغرت بطول الترداد ، واستطاع الفقير بمرور الأيام أن يعرف قصره في البغدادية ، كما استطاع أن ينضم الى بعض البؤساء الذين تشملهم حسنات الدار ، وتجمعهم مائدته في أكثر الأوقات .

وعرف من زملائه حقيقة علوة كزميل قديم ، فاستغرب أن يواتيه الحظ في مثل هذا اليسر النادر ، وكبر عليه أن تبخل الأيام على مثله بما يغنى حاجته الى الطعام والمأوى .. وتلك أحاسيس تثير الحسد بما في الحسد من مشتقات .

وليس غريبا أن يشعر هذا الصنف من الناس بمثل هذه الأحاسيس الممضة . كنتيجة لحرمانهم ، وقسوة الناس عليهم . فقد كان علوة نفسه يتعذب بمثل هذا المرض قبل أن يصادفه الشيخ ، ويعنى به ، ويشفي مركب النقص في أعماقه بوسائله العلمية التي أحالته من مجرم آثم يجدف على الحياة ويتمنى هلاك من فيها . الى انسان جديد .. يتعشق خير الناس ، وينبض فؤاده بحبهم .

ولو صادفت بائسنا الجديد مناسبة تهيأ له فيها اختصاصي من أطباء النفوس لاستطاع بوسائله أن ينتزع جرثومة الشر ، وأن يبذر في مكانها ما استطاع أن يبذره الشيخ في أعماق علوة من بذرة الخير !!

فرح الفقير باهتدائه الى حقيقة علوة التي كان يحاول اخفاءها حياء من بيئته الجديدة ، فاراد أن يستغل هذا الحياء الى أبشع حدود الاستغلال .. فواجه علوة بما فهم من حقيقته ، وأردف بأنه سوف لا يتخلى عن كتم سره ا حرصا على سمعته ا ما ظل علوة يبره بما يصلح شأنه بين الناس .

ولم يأبه علوة في أول الأمر بما لوح به الفقير ، كما أنه لم يمانع في اسداء

المعونة الى انسان يعاني مثل هذا البؤس .. الا أن المعونة أبت أن تقف عند نهاية تحدها .. لأن أطماع الفقير كانت تتطور كلما تطورت الأيام .. حتى باتت أقرب الى الضرائب منها الى معانى الاحسان ، كما تطورت أرقامها الى مقادير فاحشة .

وعندما غضب علوة لكرامته ، أبي الفقير أن يداهن عواطفه الثائرة .. فقد كان يشعر أنه يتقاضى أقل مما يستحق ثمنا لصون شهرته مما يشوبها في نظر الناس ، وأبى علوة أن يعترف باستخذائه لما يضمر الفقير .. فكانت الجفوة ، وكان الكره .. ورؤى الفقير بعدها يولي ظهره الى علوة وقد لاحت على محياه معاني الغدر الذميم !!

وشاعت في جدة على أثر هذه الحوادث قصة أرملة غنية .. سطا عليها أحد اللصوص فاغتالها ، ثم سرق مدخراتها من المال ، والنفائس ، دون أن يترك وراءه أثرا ينم عليه . فنشط رجال المباحث في البوليس لتحقيق الحادث .. فلم يتبينوا ما ينير لهم التحقيق ، فاستاء قومسير الجندرمة ، وأعلن بين مشائخ الحارات ووكلائهم عن مكافأة سخية لمن يرشد الى ما يضيء التحقيق .

وفي ذات مساء ، استأذن الفقير على قومسير البوليس .. فلما أذن له ، قص عليه ماضي علوة ، وما كان يشوبه من شوائب .. ثم قال « وهو اليوم يرأس عصابة من أخطر اللصوص يسرقون ما تناله أيديهم ثم يأوون الى بيته .. ليقسم بينهم ما سرقوا ، ويحتفظ لنفسه بالنصيب الأوفي ، وقد حاولني أحدهم للانضمام الى عصابتهم فأبيت ، وأخبرني هذا عن حكاية سطوهم على الأرملة ، واغتيالها ، وسرقة مدخراتها من حلى ومتاع ، ونقله الى بيت علوة توطى لإقتسامه .. وفي استطاعة حضرة القومسير أن يتأكد من حقيقة علوة التي أرويها في دفاتر البوليس في مكة ، وأن يأمر بمهاجمة البيت ليجد متاع الأرملة مختبئا في أي مكان خفي منه !

ولم يتسرع قومسير البوليس قبل أن يتحقق من شخصية علوة ، فاستدعى شيخ حارته ليتعرف منه هويته بصورة سرية .. الا أن شيخ الحارة خيب جميع الظنون التي خامرت القومسير في شخص علوة ، وأكد تأكيداً لا يقبل الجدل : ان علوة مثل نادر للاستقامة والشرف ، وأن مبالغته في الاحسان الى المعوزين ، وفيهم المتشرد والآثم وافساح بيته لايوائهم ، هي عيبه الوحيد اذا صح أن في الاحسان عيب .

وأظهر القومسير لشيخ الحارة مبلغ اقتناعه بما زكى به علوة ، بعد أن حذره شديد الحذر من افشاء حرف واحد مما سمع ، فخرج شيخ الحارة مطمئنا الى نتيجة ما دافع به ، ولم يبح لنفسه أن يفشى شيئا مما حدث برا بما وعد .

وانتدب القومسير بعد هذا من تحري حقيقة علوة في دفاتر البوليس بمكة .. فانتهت اليه النتائج بأنه لص سابق تعود الاجرام ، وأنه غافل الحراس في احدى المرات وهرب من السجن ضمن عصابة من زملائه ، يرأسهم (أمين الجاوي) المشهور بجرائمه في مكة .

انتهت هذه النتائج الى بوليس جدة ، وليس في منطق البوليس من أي لون كان أن يصيخ الى غيرها تنطق به صحائف السوابق .. لأن توبة المجرم فصل لم يدرج الى اليوم في قواميس البوليس .

وفي ذات أمسية من أمسيات جدة المشرقة باشراقة القمة الساطع وكان علوة قد ارتفق حافة نافذته المطلة على البحر المترامى ، يشرف منها على الأمواج اللامعة تحت ضوء القمر ، فاجأه دخول أحد الخدم :

« عمى ... يا عمي علوة .. ان فلانا الفقير أسر الى غم جمال الطباخ بأنه رماك عند البوليس بتهمة القتل ، وأن البوليس لا يلبث أن يقبض عليك » .

طيب روح انفلق انت وهو .

وقبل أن يروح الخادم (لينفلق) ، ترامى الى سمع علوة دمدمة خافتة وصلت اليه من النوافذ الخلفية المطلة على باب القصر ، فأسرع الى النافذة يستوضح الأمر .

❊❊❊❊❊

قال الخادم يحدث طباخ القصر ، بعد أن استولى البوليس على ما في القصر رهن التحقيق ، وطرد منه جميع الخدم .

(والله يا عم جمال .. أنا شفت عمي علوة وهو يجري الى المخلوان في الساعة اللي كان البوليس بيهاجم فيها القصر .. ولكن فين راح بعدها ما أدري .. فص ملح وداب .. دخل البوليس الى كل غرفة فلم يجد له أثرا ، ودخل حتى في المخلوان فلم يجدوا له أثراً .. ما أدري ان كان له باب سري خرج منه .. لكن فين هذا الباب السري ؟ ما أدري .. ما فهمته أما ولا قدر البوليس يفهمه .

◎◎◎◎

وبذلك أسدل الستار على الرجل التائب ، وضاع في غمرات الحياة كضحية لما نسيه (صفحات السوابق) .

ورؤى علوة بعد سنوات من الحادث في مدينة من جزر جاوا ، يصاحب أستاذه القديم (أمين الجاوي) الذي علمه بعض فنون اللصوصية في السجن !! فهل عاد سيرته الأولى ؟؟؟ اذا صح هذا فمن المسؤول ؟؟


أبو ريحان
السقا

أبو ريحان السقا

كنا نشهده ونحن مصعدون في ضحوة النهار المبكر الى مدرستنا (الراقية) على كتف جبل هندي .

نشهده في أغلب أيامنا منحنيا تحت قربته (الشعارى) الكبيرة ينقل خطاه في تثاقل تحت وطأتها متوكأ على عصاه القصيرة كأنها رجل ثالثة أرادها ليخالف بها من يمشى على رجلين أو على أربع .

وربما بلغ أبو ريحان منتصف « الدحديرة » الصاعدة الى جبل هندي قبلنا ، ليقف الى دكة هناك هيأها السقاة ، لراحتهم وهي على ارتفاع خاص يسامت ظهورهم اذا وقفوا اليها وجعلوها كمحطة تستريح عليها « قربهم » لبينما تهدأ أنفاسهم من عناء التصعيد ثم يستأنفون صعودهم .. الى بيوت الجبل .

وكنا شلة من صغار الطلبة تجمعنا الشقاوة وحب العبث بعم ريحان دون جميع السقاة الصاعدين أو الهابطين في جبل الهندى .

كان أبو ريحان يمتاز بقربة تتعدد ثقوبها بشكل غريب فلا تفتأ ترش الشارع خلفه وجميع ما يتصل بالشارع من مشاة أو بضائع تحتل الطريق أمام دكاكين أصحابها .

وكان من عبثنا أن ننتظر عم ريحان آتيا من « بازان الشامية » يحمل قربته الرشاشة .. ننتظره في مطلع الجبل الى جوار دكان هناك كان يفترش جزءا من الشارع ببضاعته .. حتى اذا أقبل وقف أحدنا لاصقا بالحائط وفي يده شيء من النبق مادا يده : « خذ يا عم ربحان » .

وعم ريحان (نفسه رتعة) لا يكاد يرى النبق في يد أحدنا أو قطعة من « الجزر اليماني » حتى يميل بخطوة ناحية الواقف في لهفة فيتصوب الرشاش الى بضاعة الدكان وينال زنبيل الدقيق منه الكثير الذي يعجنه .

ولا يكاد أبو ريحان يشعر بالمقلب الذي نسوقه اليه فنحن نعرف أن صاحب الدكان شرير وانه يكفي لاثارته ضد عم ريحان أن نسوق عم ريحان بقربته الرشاشة الى ما يقرب من الحائط ليتصل رشاش القربة ببضاعة عمنا الشرير.
لا يكاد أبو ريحان يشعر بمقلبنا فالقليل من النبق يذهله وينسيه ما قاساه أكثر من مرة من أهوال الرجل .

ويمضي أبو ريحان في تصعيده ، فنتكتل خلفه معرضين أثوابنا النظيفة ودفاترنا وكتبنا لرشاشه اللذيذ وربما تدافعنا خلفه ووقع بعضها بين رجليه فتعثرنا واختل توازنها فيصرخ فينا مهددا متوعدا ، ولكن قطعة من الجزر نضعها في فمه وهو يمضي منحنيا أمامنا تحت القربة كافية لان تنبسط أساريره وربما استغرق في الضحك .. وهو يقضمها بشره .

ويعزيه ضحكه اغراقا اذا « مسكنا الزومان » خلفه على حركة أيدينا وهي تصفق : « أبو ريحان .. يا ساقي العطشان .. شفتك في الدرجان .. تغالط رمضان » .
أنا شخصيا أشهد أن الرجل لا يفطر رمضان رغم ما يعاني من ثقل القربة ومشاوير الجبل ولكنه طيب الى أبعد حدود الطيبة والتغفيل ، ولا يهمه من أمر هذه الحياة الا أن يجمع الهللة فوق الهللة ، وأن تسخو يد الصغار له بشيء من « الشار » أو « طبطاب الجنة » أو حتى « فوفلة » يضعها بين فكيه في غير وقت الصيام فتسبيه وتسرى عنه كل الهموم التي يعانيها من شقاوة الأطفال ..

وكان لفرط سذاجته كثير الاساءة الى عملائه وزبائنه .. انه لا يقصد اساءة الناس ولكن سذاجته كثيرا ما تسوقه الى أذى الناس كما شهدناه يرش دقيق صاحب الدكان بدافع من شراهته لقطعة من الجزر لوحنا له بها .

وقد يشاغبه طفل فيرميه بعصاه التي يتوكأ عليها فتصادف رأس الطفل أو أنفه ليمضي باكيا الى أهله أو ترتطم عصاه بأحد المارة أو ببضاعة أحد الباعة أو بمرآة معروضة في السوق فيركبه الخطأ وتنهال عليه الشتائم ثم تتصل الشكاوي بشيخ السقاة « بعلولة » فيطبق عليه القوانين دون أن يثبت له شيء لفرط عيه وضعفه في الدفاع .

وكان السقاة في مكة جلهم أو كلهم بالاصح عبيد أو عتقاء أو مولودون من العبيد والعتقاء على غرار عم ريحان وقلما يوجد بينهم من بدو الحجاز الذين التحقوا بهم فيما بعد ليحملوا الماء في صفائح .. كان حمل القربة وقفا على هؤلاء السود ، فحملها لا يرقى لاحترافه البدو الطارئون .. يكفي أن يبيحوهم العيش على هامش البازان ، دون أن يربطوهم بقواعد السقيا وقوانينها .

ربما أخطأ البدوي على زبون فحسب شيخ البازان توبيخه أو منعه من السقيا

أما اذا أخطأ الاسود من أمثال عم ريحان فعلى شيخ البازان أن يعامله معاملة الأصيل فلا يستبيح توبيخه أو منعه من السقيا حتى يحيل قضيته الى الجمعية العمومية لتسمع له أو عليه ثم تقرر ما يفرضه القانون .

وتتكون الجمعية العمومية من سائر سقاتنا السود ولا يجوز لحامل صفائح « مهما بلغ شأنه أن يحضرها فهو ليس من فصيلة العبيد الاصلاء في البازانات .
وتتكون الجمعية عند اللزوم بدعوة من شيخ البازان في حلقة على التراب مستديرة على خطوات من البازان يتصدرها شيخ البازان على يمينه وشماله أعضاء الميمنة والميسرة حسب أصالتهم وأقدميتهم في البازان ثم يأتي بعدهم بقية السقاة يحتلون مقاعدهم حسب ما يعرفون من مراكزهم وربما أبيح لبعضهم أن يأخذوا مقاعدهم من بعض الحجارة التي يصادفونها اذا كانوا كبار السن أو المقام ، ويتورك الباقون على بساط الله فوق التراب .

وتتوسط الحلقة فروة مسجاة يقف نقيب البازان بجوارها على العصا .. عصا القانون الخاصة بالتنفيذ ، وعندئذ تفتح الجلسة .

يفتحها الرئيس : « هذا أخوكم أبو فرج الله ، أو أبو سنكيت ، أو أبو ريحان ، أخطأ في حق الشيخ فلان .. أخر عليه (المويه) أو كسر له الزير أو داس في بطن الغنمة أو أطال لسانه على الولد الصغير .. وقد وصلني الشيخ يطلب الحق .. ايش تشوفوا » .

وهنا يميل أعضاء اليمين ليتهامسوا ، وأعضاء اليسار ليتخافتوا ثم يهيب أحد الكبار : « طيب يا شيخ نسمع منه .. » .

وهم يقصدون أن يسمعوا من المتهم لان المدعي لا يلزم بالحضور وحسبه أنه رفع حجته الى الشيخ البازان وعلى المتهم أن يدافعها .

والغريب في أمر المدعي أنهم يفرضون صدقه في أكثر الأوقات لأنه زبون والزبون حرمته وقيمته ولأن قانونهم لا يحب التهاون في ملاحقتهم ولو للشبهة أو الغفلة مبالغة في تربيتهم على الأدب في معاملة الزبائن وغير الزبائن من آحاد الناس.

بهذه الروح تستمع الجمعية الى دفاع المتهم فلا تقتنع الا بتأديبه وعندئذ يدعى الى الفروة التي تتوسط الحلقة فيتوسدها مبطوحا على وجهة ويشرع النقيب عصاه ويبدأ الجلد.

وأي جلد هو ؟؟ لقد كنت أتمنى الى مشائخنا في المدرسة أن يتعلموا تقليده .. فليس ثمة خيزرانة لدنة تترك أثرها في الجلد بين اللازوردي والأزرق كما كان الحال في مدارسنا، بل هي قطعة من الغاب أو ما يشبه الغاب يوازي ثخنها ثخن المواسير ذات البوصة لو ضرب بها الأطفال من أمثالي يومها عشرة لما وازت لسعة واحدة مما كنا نذوقه من أيدي مشائخنا.

ولهم في الجلد أساليب رحيمة .. ان يد الضارب لا تنفصل عن أبطه وهو اذا ضرب ثلاثا في الالية اليمنى انتقل الى الجانب الآخر ليضرب مثلها في الالية اليسرى ولا يطول الجلد في الغالب الى أكثر لهذا فقانونهم الصارم يبيح للمتفرجة حول الحلقة أن يقدموا الى الحلقة أي عود أخضر ولو من حزم البرسيم ليشفع العود الأخضر للجاني فيتوقف الجلد.

وكان قانونهم بقدر ما أراد أن يكون صارما محتاطا للشبهة ابى الا أن يمد للرحمة في أسلوب الجلد وتعطيله عند أي رمز يقدم للشفاعة.

وكان صاحبنا أبو ريحان وافر الحظ في حلقة التأديب فلا يكاد يقضي يوم أو اثنان حتى نسمع أنه مطلوب «للبداية» والبداية في عرفهم هي الجمعية

العمومية التي تدينه لا تفه الشكاوي ويعجز لفرط عيه وقسوة القانون عن الدفاع فيفترش الفروة وسط الحلقة مستعينا بالله على حكم الجلد ولكنه لا يكاد يذوق الجلدة الأولى أو الثانية حتى تتهافت أعواد البرسيم على الحلقة من المتفرجة وأكثرهم يعطفون على بلاهته ويعرفون أن شراهته لما في أيدي الصفار من حلوى أو « نقل » وحرصه على ملاحقة الكسب الرخيص وامساكه على (الهللة) بعد الأخرى ، كلها أشياء تعرضه بالاضافة الى بلاهته الى الشغب وعبث الناس به حتى يقابحهم أو يتورط رغم ضعفه في مضاربتهم .

ومضت سنوات طويلة ابتعدت أثناءها عن المدرسة ونسيت (أبا ريحان) حتى كنت في أحد الأيام أزور مستشفى أجياد فاذا جلبة عالية .. واذا أناس يتجمعون حول سيارة الاسعاف عند باب المستشفى فوقفت أنظر ، فاذا أبو ريحان منقول على حمالة الاسعاف في حالة يبكى لها الفؤاد ، واذا طائفة من كبار السقاة على رأسهم شيخهم (بعلولة) يتبعونه في أسى صامت فوجدتني أتابعهم بدافع من علاقة الطفولة حتى اذا استوى فوق أحد الاسرة فتح عينيه في ضعف فلما رآني بين الوقوف انفرجت شفتاه في ألم بالغ : « يا ولد سيدي .. شوفى الله يخليك ليش جابوني هنا .. أنا ما سويت شى !! »

مسكين .. لقد اصطلحت عليه السذاجة وهذيان الألم فاختلطت عليه الأمور .

وملت الى أحد « سناديله » أستفسره الأمر فراح يشرح لي ما أصابه : عاش أبو ريحان محروما من لذة العيش يجمع الهللة الى الهللة ، ولا يسخو لنفسه بلقمة طيبة يشتهيها فاستغفل أحد الشطار لؤمه وراح يدعوه الى أطايب الأكل في براءة جازت على سذاجته حتى اذا تمكن من قلبه وسيطر على عقله استطاع بأسلوبه الخلاب أن يستولي على ذخيرة أبي ريحان حصيلة العمر على أن يحفظها له ويقدم له من أرباحها ما يشتهى من لذائذ العيش فلما باتت في يده لم يبرح


حتى تنكر له ومنعه حتى رغيف العيش الحاف .

واحتدم أبو ريحان غيظا وارتفعت عقيرته فألهب حماس الشاطر وصاح به

« روح .. مالك عندي شي » .

فكانت صدمة نقلت أبا ريحان الى المستشفى ليواجه ذهول الموت .




أخطأ العفريت
ولم أخطئ

أخطأ العفريت ولم أخطئ

هالتها آلام الرضوض في رجلى ، وساءها مرور الأيام طويلة دون أن تبدر للشفاء بادرة ، أو يظهر في رجلى ما يدل على تحسن حالها فقالت :

- يعنى أنت ليش ما تستعقد ؟؟
- في ايش أستعقد ؟
- لازم تعرف أن الطبة ما تسوى في رجلك هذا الحال كله !
ش ولكنها سوت زي ما أنت شايفة
- ما سوتها الطبة لوحدها !!
- أجل في شي تاني غير الطبة سواها معاها ؟؟
- انت بنفسك فكر !

- واذا كان فكرى ما يصلح .. ليش اللي زيك ما ينفعني بفكره ؟؟
- أنت ما تستعقد !
- يعنى رجعنا (للاستعقاد) حقك هادا .. مرة ثانية ؟؟
- نعم انت رحت الأشعة واتعالجت عند الدكتور ، وجبت المجبر في البيت عشر مرات ، تقدر تقولى ايش قدروا كلهم هادول يسووالك ؟؟

ـ الصحيح ما قدروا .. ولكني أيش أسوي ، .. مادام يقولوا الوجع كباس !!
والعافية نسناس ؟؟
ـ لا يا سيدي تقدر تسوي كل شيء .. لكنك ما تستعقد .
ـ يعني احنا برضنا في هذا الاستعقاد اللي ما أنت راضية تبينيه .
ـ أنا أبينه .. لكن أنت رجال ترتيق وتسويني مضحكة .
ـ لا .. في هدى المرة منت مضحكة .. بس بيني لي الهرجة اللي يمشي عليها
الجمل .

ـ وما تضحك على ؟؟
ـ اذا كان هرجك مضبوط .. ليش أضحك ؟؟
ـ هه .. باين تبغا تضحك عليّ .

ـ أجل أنت عارفة هرجك مو مظبوط ؟
ـ لا .. يمكن مظبوط .
ـ يمكن و . ؟ . بس ؟؟ سار أنت شاكة في هرجك بنفسك ؟
ـ لا .. ماني شاكه .. هيا اسمع !! انت تدري لمحت على مين ؟؟
ـ أنا . ؟ . أنا طحت على مين ؟
ـ أيوه .. أنت طحت على مين ؟
ـ هو دا سؤال ؟ طحت على مين ؟ .. أنا يا ستى طحت على حجر !!
ـ هه .. هادي هي قلة الاستعقاد .
ـ طيب والاستعقاد ايش يقول ؟ يجيب لى الاستعقاد شي من الخيال ـ
ويقول لى أنت طحت بالفصيبة عليه .
ـ لا .. موكده .. أنت تقدر تقولى طحت على شي ماشفته .
ـ يعني طحت على شي صفير ما ينشاف ؟ على كده هذا الصغير ما يعورني ـ
أما العجر اللي شفته هو اللي صحيح يعور .
ـ برضك مانت راضي تستعقد .

- يا ستي والله أستعقد .. بس هاتي فهميني شي أستعقده .
- يعني أنت ما تعرف أن الأرض فيها عمار ؟
- يعني من الجن ؟؟
- أيوه .. من الجن .
- طيب وأنا ايش لي .. وايش لهم ؟
- برضك رجعت ؟؟ ما تستعقد .
- يعني أستعقد متى ؟؟ بعد أفهم .. والا قبل أفهم ؟؟ أنت مادام مستعقدة فهميني تكسبي ثوابي .
- قلت لك الأرض فيها عمار .
فهمت أنه فيها عمار .. العمار ايش لهم وايش لى .. أنا راجل طحت على الحجر انفركت رجلي .. اترضت .. انفكت .. يعني غرضك يمكن أن الحجر جنى ؟؟
- أيوه .. يمكن .

- طيب وكيف أفهم أن الحجر جنى .. ايش الدليل .. والا بس الواحد يستعقد من غير دليل .
- الا في دليل .. الدليل ان الأرض مليانة بالجن .
- يعني يمكن هدا الحجر جنى ؟
- مو بعيد .

- طيب وهادى الحجارة كلها اللي الناس طايحين فيها تكسير بالفواقيش والعتل .. كلها هادى الحجارة جن ؟؟ والابس هادا الحجر لوحده جنى ؟؟

- مو بعيد يكون هذا لوحده جنى .
- طيب هدا الحجر لوحده جنى فهمنا .. ايش لو هدا الجنى عندي ؟
- أنت لا بدك عورته !
- كيف عورته ؟
- طحت عليه !!

ـ يعنى مقصودك جيت لقيت حجر قاعد في الأرض .. قمت رميت نفسي عليه علشان أعوره ؟؟ هادى هى هرجتك اللى تبغيني استعقد فيها ؟ طيب أنا أخطيت عليك يا حجر .. لكن الحجر في قياسك .. ما أخطى على ؟

ـ ايش هو خطا الحجر ؟؟
ـ ليش ما صاح في وقاللى ترى يا شيخ انتبه .. أنا جنى !! روح عني بعيد !
ـ تبغي الحجر يصيح ؟

ـ اذا ما صاح سار هو المخطئ .. أولا حاجة هو شافني أطيح .. والناس ما تطيح الا غصبا عنها فكان لازم يشرد من طيحتى .. الشيء التاني لما شافني قريب الطيحة ليش ما صاح في وشى وقال : روح عني بعيد .. ترى أنا جنى ، وأقل شي يعورني .

ـ هادا الهرج يا شيخ .. الناس ما تقوله !!
ـ أبدا .. الناس ما يعجبهم الا الهرج اللي يكون باين فيه محل الخطأ والصواب .. أما أن كان الجن أحكامهم غير كده .. فهادا يسير خطأهم مو خطايا أنا .. أنت لما تكونى قاعدة محل الجنى وشفتينى طحت فوقك غصبا عني .. ايش رأيك ؟ ما تعذريني ؟؟ ان ما عذرتيني .. تسيرى مانت عاقلة .

ـ لا ... أعذرك !!
ـ طيب وليش الجنى ما يعذرني ؟ .. وخصوصا وهو يدري اني ماني شايف غير حجر .

ـ لا بده ما يعذر .
ـ أجل أنت أخطيتني عليه دحين أكتر مني .
ـ ليه ؟؟!

ـ لأنك سويتيه ظالم ، واعتبرتيه ما يعرف اللي لو .. واللى عليه .. فان كان هو تمام .. يزعل منك من صحيح .. ويمسك رجلك بدال رجلي .. لأني رجال مااعتديت عليه .. أما أنت كلامك كله تعدى عليه .

ـ وى .. هيا جينا لهرج المجانين !!

وما أتمت كلمتها حتى كان صوت غلاية الشاي فوق الموقد يناديها فأولتني ظهرها مسرعة ، وهي تحوقل من غرابة أطواري وقلة اعتقادي .

وتركتني بعد هذا أضيف الى جنوني مرتبة جديدة في الجنون تصور لي هذا الحصى الذي أطأه ، والاحجار التي أدوسها ، وقطع الأخشاب التي ربما تكسرت تحت قدمي وأنا لا أعلم من أمرها شيئا .. كل هذه أتصورها أخيرأ عالما من الجان تأخذ علينا السبل ، وتعاقبنا أشد العقوبة وأقساها اذا وطئناها ؛

سأضرب ابتداء من يومي عن المشى حتى لا تصطدم رجلي بعد الآن بأحد عمار الأرض وسأقنع بالبقاء في بيتي لا أريم خطوة . فهل يوافقني مجنون يناصر مذهبي ويدعو معي الى هذا الاعتكاف ؟؟

وهل يرضى العقلاء أن يحذفوا هذه السيدة من بنودهم ليضيفوها الى المجانين ، وينقلوني لأحتل المركز التي كانت تحتله بينهم في صفوف العقلاء ؟؟

أيرضيهم هذا ؟ أم يظلون على تعصبهم لا يقبلون الهوادة فيما صنفوا ، ولا تزجرهم البراهين عما اعتقدوا ؟

اذا صح هذا فبارك اللهم عليى نعمة الجنون !


بعد أن طاب
السفرجل

بعد أن طاب السفرجل

خديجة الفقيهة من عائلات مكة العريقة قرأت المصحف على أبيها الشيخ وجودت آياته وحفظت جملة صالحة من كتب الحديث وتمرست في فن الخط والحساب الى حد كان لا يتيحه عهدها يوم كان من عيوب الفتاة أن تتعلم كيف تكتب .

وأصابها الزمان في أبيها ثم في زوجها دون أن تخلف منه ولدا يعولها فرأت أن تتخذ لها كتابا تعلم فيه البنات لتكسب عيشها وما يقيم أودها .

كان كتابها يقع في زقاق يتفرع من المدعا يسمونه زقاق الشيش وكنت لا تمر بالزقاق في أي ساعة من ساعات النهار حتى تصافح اذنيك أصوات البنات يقرأن في ضجة عالية .. وربما سمعت بعض المارة من اتراب أبيها كبار السن يتلمظون حياتها في عهد أبيها - « والله وعرفت تخلف مين يا شيخ سليمان .. الله يقويك يا بنت الشيخ .. ياخدوج !!

وكتاب خديجة الفقيهه أو - خدوج - كما يتراءى لاتراب أبيها أن يدللوها لا يزيد عن غرفة واحدة متسعة الاطراف قسمت البنات بين أركانها الى ثلاثة فصول

.. فصل يتهجى الأليف لا شيون عليها .. وفصل يفك الحرف في قصار السور من جزء عم .. وفصل بالغ الغاية تتربع كل بنت فيه أمام كرسي مزدوج يحمل مصحفها تقرأ فيه طوال السور وتتابع ما تقرأ باصبعها أو ريشة تتخذها من ريش الحمام تشير بها الى حروف الكلمات وهي تقرأها - (فين الفنة يا بنت .. افتحى فمك بالمد .. يعنى منت شايفه السكون بعد المد يبغي له ست حركات).

ولا يقبل كتاب خديجة أو خدوج أطفالا من الذكور - هادا يا ستي كتاب مخصوص للبنات .. والعذر لله ولك .. شوفي هناك كتاب الشيخ الصنعاني في دحديرة القرارة ليش ما توديه ؟ .. كتاب عليه فتوح ألف ما شاء الله ..

ومع هذا فقد وجد بعض الذكور طريقهم الى الكتاب في عدد لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة كان سن أكبرهم حسان لا يتخطى العاشرة الا بشهور رأت الفقيهة ان لا مناص من قبولهم لأنهم جيرانها « والواد الكبير حسان ربنا ممسد على وشه .. ولد هادي ما عنده شيطنه . »

كانت تقنع نفسها وتقنع أمهات الطالبات بمثل هذا وهي تخفى في قرارتها شطارة حسان في قضاء أكثر حاجاتها الصغيرة من السوق واستفادتها من أبيه بائع البليلة عند باب الكتاب « من فضلك روح يا عم قاسم دخيلك قضى لنا وصلة لحمة شويه ملوخية بس جيبها من العشرى .. وزل من فضلك على أبو سعدية خذ منه العادة .. ربنا ما تقطع له عادة ان شاء الله » ..

وأبو سعدية من مشاهير الصاغة في زقاق الحجر أمام باب النبي .. كان كبيرا في عمله ، كبيرا في ثورته ، كبيرا في شهامته وبذله ، كبيراً في عطفه على ضعفاء الناس كما كان كبيرا في حارته : « عند الله وعندك يا أبو سعدية .. احنا ما نسينا انك شلت الزينة على رأسك .. فتحت كيسك وبيتك .. الحارة ما تنسى لك جميلك .. احنا ترى عندنا خرجه عازمين أهل النقا في الشهداء .. أحنا بس نبغا الطليان

منك والباقي على الله .. عندنا أبو صادق والشريم والبالع برضهم أهل فزعه ما هم
متأخرين بس انت سيد الكل .. راس القايمة . »

ـ يا مرحبا .. حيا الله نباكم .. بس الحق صلاة العصر مع الجماعة وارسلوا لي
النقيب .. واللى تقولوه على ماشي » ..

● ● ●

أجل ماشي .. فقد تعودت نفسه السخاء وأدركت فقيهتنا ميزته في البذل
فاخذت تعنى بسعديه ابنته عناية فائقة واستطاعت أن تستدر عطفه على الكتاب

ـ البزوره يكسروا الواحهم يا أبو سعدية ويقطعوا الأختام .. أكثرهم فقرا ما
عندهم يشتروا بدالها .. كمان ـ المضر ـ زى مانت شايف عمال يخلص قبل الدور ..
فزعتك يا أبو سعدية الهى ما يحرمنا منك !!

ـ طيب ارسلي لي عم قاسم كل دور .. وربنا يقدرنا على الطيب ! وكان الطيب
ريالين (مجيدى) أصبحت عادة ينفحها أبو سعدية للكتاب كل أسبوع .

وادرك العم قاسم ما يتمتع به أبو سعدية من اريحيه فكان اذا بارت بليلته في
نهاية بعض الأمسيات كلف حسان ولده أن يحملها الى دكان أبي سعدية : « يسلم
عليك أبويا ويقول لك شوف اليوم البليلة زي المخ خلالك منها شوية علشان
سعدية واخوانها .

ـ طيب وديها البيت يا حسان .. وهادا ريال حق البنيله وهادا ربع ريال لك
واد يا حسان لو بدك تشتهى البليلة كل مع سعدية يا ولدى .. وشوف عندهم ..

ديها لأمك في البيت تسويها مربة . ويفترش
سفرجل خليهم يعطوك كم حبه و
حسان وسعدية أرض الخارجه فوق مفرش صغير أمام صحن من البليلة وآخر من
السفرجل !! وتشعر سعدية بدافع لا تفهمه ان عليها ان تكرم حسان في بيتها .
فتقدم له قطع السفرجل المقشور فيتقبلها ممتنا ولا يعرف لحداثة سنه كيف
يقابل جميلها فتختلط المعاني في نفسه ، وتضطرب ، ويشعر بنأمة خفيفة تنبض
في صدره لا يتبين لها معنى ويحس أن عليه أن يفعل شيئا من أجلها فتسبق
نفسه الى جبينها يطبع عليه قبلة خفيفة !! أودعها امتنانه كما كان يشهد أمه
تطبع على جبين سعدية نفسها مثل هذه القبلة كلها حملت اليها هدية من أمها أو
تفصيلة جديدة للعيد تبر بها جارتها .

ودخلت أم سعدية فجأة على حسان وهو يطبع قبلته البريئة على جبين ابنتها
ورأت ابنتها تضحك لبادرته الحلوة فطاش الدم في صفحة وجهها ، وانهالت تضربه
بمروحة الكوانين في يدها : « كدا ياللي ما تستحي .. يقولوا عليك ولد هادي وانت
تعرف هادى المسخرة .. امش من هنا لاعاد أشوف وشك في هدا البيت اكسر رجلك
.. » « وانت يا بنت سعدية كيف تخليه يسلم عليك ولد زي هادا ما يعرف العيب
.. اصحى تاني مرة أشوفك تهرجيه . »

لم يفهم حسان معنى لهذا الزعل المفاجئ ولم يفهم معنى لطرده من البيت وما
ناله من ضرب المروحة . عهده بأم سعدية تحدب عليه وتعطف على أمه كجارة
وفية ودودة فلم يملك الا أن يسلم ساقيه للريح حتى اذا انتهى الى الشارع سالته
قدمه الى عتبة باب الكتاب فركن اليها وراح في ذهول يستعرض في عقله الصغير
كل الأسباب التي تحتمل ثورة أم سعدية عليه وطرده بهذه الصورة المهينة فلم
يسعفه خياله البرىء بأي معنى يفسر ما حدث .

وفجعت سعدية بدورها لما حدث فلم تملك الا أن تبكى بدموع مدرارة ..
ونهرتها امها فمالت بجسدها على الأرض وأخذت ترفس برجليها وتشهق ببكائها
في طفولة مجنونة .

وأمسى الليل عليها فأخذت سبيلها الى مضجعها في - الخارجة - تحاول النوم ولكن النوم أبى لاول مرة في حياتها الا أن يستعصى عليها .

تبلبلت افكارها وذهبت بها آلاف المذاهب .. لم يخرج حسان مضروبا مطرودا بلا ذنب ؟ حاولت في حدود ما يتيحه سنها أن تفهم سببا لما حدث فطافت بذهنها آلاف الظنون الا قصة القبلة على جبينها فقد تعودت مثلها من أمها وأبيها وأكثر أقربائها .. تعودتها على جبينها ووجنتيها وثغرها من معارفها وجيرانها رجالا ونساء كما تعودتها من فقيهتها في الكتاب !!

طافت بذهنها آلاف الظنون الا قصة القبلة فالتاث عليها الأمر ، واختلط ، وجفاها النوم فلم يغمض لها جفن الا بعد أن أسفر الاصباح .
عندما شعرت بثقل أجفانها ورأت نفسها فيما يرى الغافى تجرى الى بيت حسان لتسترضيه فيهولها نحيبه وقد ملأ البيت وتنادى بأمه لتفتح لها باب البيت وقد وجدته مغلقا في وجهها فيطل وجه الأم من نافذتها ثم يشيح عنها في ازدراء !!

هبت من نومها مذعورة فآلت على نفسها في سرها أن تستعجل خروجها الى الكتاب لتقابل حسان وتسترضيه فيما حدث من أمها ولكنها ما كادت تخطو حتى سمعت أمها : « يا ابو سعدية بلاشى على البنت كتاب علشان خاطر هادا الواد حسان .. ونرى لاعاد يجيني البيت بعد كده .. ترى أكسر رجله ناقص علينا ولد هايف زي دا . قال ايه .. قال : أبوه بياع بليله .. قرف !! وحاول أبو سعدية أن يفهم الفكرة فأبت الا أن تعمى عليه : « بس كدى هادى بنت وأمها أدرى بها .. انت مالك شغل .. البنت تنطق في البيت .. وانت خليك في شغلك » .

لم يرق لابى سعدية أن يتوسع الى أكثر من هذا فقد عاش بخلقه الرضى يتحاشى مواجهة الحياة من جوانبها المظلمة - « سيبك يا سيدي .. ما دام أمها

تبغا الا كدا اشلى واشل .

و (انطقت) البنت في البيت لا تريم عنه الا لما ليس منه بد . ولكن المسكينة عاشت وفي نفسها حزازة لهذا - الغلبان - الذي شهدت هونه في بيتها وعجزت عن انصافه واسترضائه .

كانت تختلس بعض حبات الرمان أو الخوخ كلما دخل بيتها وتدسه في يد أختها الصغيرة - اجري يا صالحة أعط هادا لحسان في بسطة البليلة .. ترى أصحى أمك تشوفك بعدين أبسك !!

كانت تعتقد أنها ترضى ربها لقاء ما حدث - للغلبان - في بيتها لا أكثر .. وكان حسان يتقبل هديتها في صمت دون أن يعلق عليها بحرف فقد الف عطف أبيها قبلها فما خالجه قط أن هديتها تتسع لأوسع ما يفهم في حدود هذا المعنى .

وربما عن له في بعض الحالات أن يقابل هديتها بشيء من البليله يضعه في جيب غثفة (١) اختها الصغيرة ويوصيها ان تأكلها مع سعدية .

وجاءته مرة بحبات من المشمش وكانت في يده سفرجلة فدسها في غتفتها لتحملها الى سعدية فما كادت سعدية تلمسها حتى ذكرت يوم السفرجل المقشور وما أعقبه من اهانة وطرد فسالت دمعتها وارتابت في الأمر ربما أرادها أن تتذكر في السفرجلة سيئات ما ناله في بيتها ولم يدر بخلدها أنها لم تكن الا صدفة " مجرد صدفة لا أكثر .

• • •

ومضت سنوات نسيت فيها سعدية أمر حسان الا في فترات متفاوتة يدخل فيها السفرجل بيتها أو تمر فيها بباب الكتاب حيث كانت تلعب مع حسان أو تشتري صحن البليلة من أبيه .

ولكن اين أباه بعد هذه السنوات ؟ .. لقد كان يبسط بضاعته من البليله في ظل هذا الركن .. وأين حسان نفسه .. لم لا ترى له اثرا في هذه الازقة المتعارضة وكانت مرتع طفولته ؟

وعن لها في أحد الأيام ان تستدرج لسان العم بادريق العجوز وكانت في طفولتها تشترى منه الزرنباك والحلاوة الموزيه فنفض اليها العجوز خلاصة ما يعرف ـ : (ايه يا بنتي أبو حسان يعيش رأسك من سنين .. أما حسان فسعده سعد . هو اليوم في المدرسة الرشدية مع الأفندية الذوات !!

• • •

لقد مات والد حسان وماتت والدته فتبناه رجل من الأشراف يشتغل في قصر امارة مكة مركزا محترما .. والحقه الشريف بالمدرسة الرشدية وكان قد أسسها رجال الدستور في ذلك العهد فظهرت عليه مخايل النجابة واستطاع أن يحقق نجاحا هيأه لعمل وظيفي ممتاز في دائرة حكومية .

وشعر بحاجته الى أن يكمل نصف دينه وان يستقل ببيت خاص فعرض عليه متبنيه بعض بنات العائلات وكادت الموافقة أن تتم لولا أن ثمت بيتا كان صاحبه يعطف عليه في صغره وثمت فتاة كان عزيزا عليها .. كانت تقشر له السفرجل !! وتنفحه هداياها من الرمان والخوخ في أسلوب صبياني لذيذ رغم ما ناله من شراسة امها فما يمنعه أن يبنى على فتاة كان يلمس عطفها وحنوها ويصاهر رجلا نادر المثال في اريحيته واخلاقه .

أفضى بالأمر الى متبنيه الشريف فاستصوب الرأي ومضى من يومه الى أبى سعدية في دكانه فوجد عنده ما ارضاه ـ « متى ما شاء الله سار في هادى الوظيفة ؟ الله ياخذ بيده كمان وكمان .. هادا ولد مؤدب وكان أبوه الله يرحمه من الناس

يا مرحبا به خليه يسير كبير .. عندي أولاد وما كبرت اخويا انايا .. الطيبين
أموت وأنا مطمن .. دخيلك خليه يزل على في البيت مشتهى أشوفه ».
البيت .. وحمل الشريف الى حسان أمر الرضا ورغب اليه ان يزور الرجل في بيته
فاسرع الى ذلك من يومه تسوقه ذكريات مشبوبه وشوق طافح ولكنه ما كاد
يطرق الباب حتى سمع صوتا لم ينكره رغم تقدم السنين .. صوت والدة سعدية
تهيب به ـ ما فيش هنا أحد .. ان كان تبغا سيد البيت رح له في الدكان.

استغرب حسان ما رأى وسمع وادرك أنه يطرد مرة ثانية من هذا البيت فهاله
الأمر وحز فى نفسه بشكل لا يطاق.

ولم يعجزه أن يعلل الأمر فهو يعلم أن سيدة البيت اساءت فهم طفولته يوم
السفرجل واحتقرت صلته بفتاتها وهو ابن بائع بليلة .. وهي اليوم لا تدري شيئا
عن مكانته كشاب مرموق .. كما يعلم أن زوجها الطيب رغم انه يفهم مثل هذه
الأمور على غير هذا النحو الأهوج ولكنه لا يملك في الوقت نفسه ان يؤثر على
افكارها في الحياة أو يقودها الى ما يعتقد صلاحه.

كتم كل هذا في نفسه دون أن يبدى منه شيئا لمتبنيه الشريف وأكد عزمه على
أن يستجر آلامه وحده وأن يلغى فكرة الزواج من ذهنه ما عاش.

• • •

ولم تمض أيام حتى انطلقت الرصاصة الأولى من قصر الحسين في مكة تعلن
ثورته على العثمانيين فانضم اليها حسان في فتية من كبار الموظفين زملاءه
يخدمون القضية تحت إمرة الحسين وبدأت وفود الهيئات العربية من الشام
والعراق ومندوبو الجمعيات العربية المغتربة في انكلترا وفرنسا وسويسرا تنثال

على مكة لتقدم تأييدها للحسين فندب حسان ليتولى الاشراف على استقبال كبار الضيوف ومناقشتهم في بعض المهام التي ندبوا لها وتقديمهم الى الحسين حسب درجاتهم وأهمية استعدادهم لخدمة القضية العربية .

ومضت شهور صدرت أوامر الحسين على اثرها بتجنيد المتطوعين من حارات مكة - الفزيعه - واستنفار القبائل الموالية في الحجاز للعمل في جيش الشمال الزاحف الى سورية تحت امرة أحد ابناء الحسين فانضم حسان الى الفرقة العاملة في دائرة أموال الجيش .

وبات الجيش في طريقه الى الشام يتلقى اعانة الحلفاء المالية صناديق من جنيهات الذهب الانكليزي . فغمرت الأموال أفراد الجيش وجميع العاملين في ادارته بشكل فياض واسع .

وعندما عسكر الجيش في العقبة وطال مكثه اتسعت أسواق الحاجيات حول ميدانه وتفاقمت اسعارها فبيعت وقيه الملح بما لا يقل عن قيمة الريال وبيع رطل السكر بما يوازي جنيها انكليزيا وبيعت علبة الدخان بأكثر من ريالين دون أن يتذمر المستهلكون لوفرة المال في أيديهم وكثرة الذهب في جيوبهم .

وتاقت نفس حسان للعمل في التجارة الى جانب عمله الوظيفي ورأى في حوزته من المال ما يتسع لأوسع الأعمال فيها فاستأذن قيادته في الأمر فلم تعارض القيادة لحاجة الميدان الى اتساع رقعة السوق فأرسل الى مكة من يختار لدكانه الواسع آلاف الأصناف .واختار لادارته صديقا وفيا فانثالت الأرباح عليه بصورة كان لا يحلم بها .

كان يقضى سحابة يومه في ادارة أعماله الوظيفية فاذا أظله المساء هرع الى الدكان ليشرف على أعمال البيع ويقفل حسابه اليومي ويحصى ارباحه التي

ظلت تتطور كلما تطورت الأيام .

وانه لفى دكانه ذات ليلة واذا رسول أمير الجيش يدعوه ليلبي طلب الأمير في أمر مستعجل فأسرع من فوره الى خيمة الأمير فاذا رجل من مكة بين يدى الأمير .. وما ان سلم حتى بادره الأمير :

ـ تعرف هذا ؟

ـ أجل كنت أعرفه وأنا صغير السن أبيع البليلة بجوار أبي وكنت أشهده أحيانا يزور بيتا معروفا هناك .

وهنا ابتدره الرجل ـ : « العلم لك خير باحسان .. انت سيبت هناك في مكة قلب : تقطع علشانك .. لا تقل لي أيت قلب .. انت لا بدك مانسيت واحده اسمها سعدية كنت معاها وانت صغير .

ـ لا والله ما نسيت لكن ما اعرف قلب مين اللى يتقطع .

ـ شوف يا ولدي .. وجه الله ما عليه غطا .. انت خطبت هادي البنت وأبوها رضى .. وقفت أمها زى لقمة الخانوق في الحلق .. سار اللى سار البنت سمعت حكاية الخطبة ما قدرت تقول ولا كلمة ، طاحت وجعانة في محلها .. تعبنا حكما .. تعبنا طببا ما فيش فائدة .. قول الام اخذ الله بوداعتها وماتت ، البنت جاها عشرين خطيب ما فيش فائدة .. مين يتزوج ؟ .. تتزوج واحدة على الفراش !! ما اكثر عليك أنا خال البنت جافى بال الابو يمكن البنت مقهورة من يوم ردوا خطبتك .. عرفنى أبوها على الحكاية قلت ولا شىء عندى .. انا اروح اجس لك النبض .. دخلت لك على سعدية .. يا سعدية هادا حسان الاولاني جاء يخطبك وابوك رضى ايش تشوفي .. أنا قلت هادى الكلمة ولا شفت لك الا البنت فتحت عيونها وصحصحت وسمعتوسمعتها تقول بنفس مفتوحة اللى تشوفوه يا خالي .

بس انا مو حمار .. فهمت الهرجه من طقطق لسلام عليكم ورحت اجرى

لابوها قال لي خلاص شوف حسان انا سألت عنه قالوا في العقبة مع الجيش وقالوا لى الرجل مضرب عن الزواج من يوم ما صكوا الباب في وجهه .. أيش تشوف ؟ قلت له ولا اشوف ولا شيء انا اقدر علشان خاطر الضعيفة هادى امد رجلى للعقبة ان كان لقيته مشترينا برضه الله يحيى نباه .. ان كان .. لا .. جيتك على تياري . وربنا يلطف بالبنت ولا ياخذ عمرها وتستريح .

وأديك تشوفنى دحين مسكوني للامير وأنا داخل العقبة حسبوني جاسوس نصيت عليه الهرجه بزي ما هيا .

والتفت الأمير في هذه اللحظة الى حسان يستوضحه الأمر . أصحيح ما يدعيه الرجل أم هو تلفيق جاسوس ؟!

وقيل ان يتفوه حسان كانت الدمعة قد سبقت الى عينيه واختلطت قطراتها بشفتيه وهو يثفوه - « أيها الأمير : كل ما قال صحيح .. واذا اذنتم لي بنجدتها فان نفسي وما أملك فداء لها .. وقد طاب اليوم السفرجل !!

وأطرق الأمير مليا ثم رفع رأسه ليقول : انك صفى عندنا . ومن النادر ان نجد من يعدلك امانة وكفاءة واخلاصا .. ولكننا سنسخو بك في سبيل روح غالية .. أرى ان تبادر الى مكة من ليلتك وسنختار من يشرف على عملك في الوظيفة ويتولى شؤونك في - الدكان .. اجمع من أموالك ما شئت واترك ما شئت لمن يخلفك على شؤونه .. هيا وأسرع الى مأمور النقل عن أمري ليجهزك وزميلك بما يكفيك من ركائب الجيش السريعه وما يلزمك للمؤنة والعتاد .. وارى ان لا تبيت الا على طريق مكة .

• • •

وانجب السعيدان على اثر هذا فتى عاش بعدهما واسع الثراء بعيد الآمال ظل يدير عملا ناجحا في جدة ثم انتقل بأعماله كما قيل الى جنوب افريقيا ولعله يعيش اليوم فيها ان لم تكن تجارته قد دفعته الى ميادين أوسع .

فهرست

للمؤلف

- **فكرة** : قصة الفتاة التي عاشت لآرائها الحرة في الحياة .
- **فلسفة الجن** : مقارنات بين عالمنا في الأرض ومثل الجن السامية وراء المجهول .
- **المرشد الى الحج والزيارة** : معلومات عامة عن البلاد المقدسة وآثارها التاريخية ، وخلاصات عن مناسك الحج فيها .
- **مطوفون وحجاج** : دراسات تبحث شئون المطوفين ، وتدلى بآراء جريئة في شئون مهمتهم .
- **سلم القراءة العربية** : أول مؤلف وطني وضع لتدريس القراءة العربية في مدارس البلاد السعودية ٦ أجزاء .
- **تاريخ مكة** : من يوم نشأتها الى العصر الحاضر يتحدث عن نواحيها السياسية والاجتماعية والعمرانية .
- **أبو زامل** : قصة الجيل القديم وعرض شامل لآرائه في التعليم والتربية ونظرته العامة في الحياة .
- **صحيفة السوابق** : عرض للجريمة وتحليل للظروف التي تهئ للاجرام ومدى مسئولية الجمهور عنها .
- **يوميات مجنون** : بحوث في فلسفة الحياة تتناول ألواناً من غرائب المفارقات فيها كتبت على لسان مجنون .
- **دعونا نمش** : دعوة صارخة للعمل في نواحي الحياة بقوة الرجل المتوثب للنهوض فيها .
- **قال وقلت** : حوار بينه وبين صاحبه يتناول دروساً هامة لبعض جوانب الحياة .



مكة المكرمة ـ التنعيم ـ طريق الجموم
ص ٠ ب ٢٤٨٤ ـ ت ٥٤٢٨٤٧٢



المؤلف

- ولد في مكة المكرمة عام ١٣٢٣هـ
- تلقى تعليمه في المدرسة الراقية الهاشمية في عهد الحسين.
- عمل في حقل التعليم لعدة سنوات وهو أول من ألف في مجال المقررات المدرسية .. وله "سلم القراءة" (٦ أجزاء)
- تولى رئاسة تحرير صوت الحجاز ..
- عمل بالمالية وتقلب في عدة وظائف بها ..
- أسس مطابع الحرم في مكة المكرمة
- أصدر جريدة الندوة وتولى رئاسة تحريرها
- بعد دمج الصحف .. أسس مجلة قريش الأسبوعية وتولى رئاسة تحريرها حتى صدور نظام المؤسسات في عام ١٣٨٣هـ
- يعتبر واحداً من رواد الصحافة والأدب من بلادنا.
- عضو مؤسسة الندوة الصحفية
- له عدد كبير من المؤلفات في التربية والتاريخ والأدب وأشهرها كتابه تاريخ مكة المكرمة (جزءان) طبع ثلاث مرات